الباب الثاني

النقائض في صدر الإسلام

الفصل الأول

عصر النقائض الإسلامية الأولى

— ١ —

كان ظهور الإسلام نهضة عامة تناولت الدين ، والسياسة ، والأدب ، والاجتماع ، وأخذت تُحيل هذه النواحي وما يتصل بها ، من طور جاهلي عربي إلى صورة إنسانية عامة لا تفرق بين جنس وآخر ، فالناس أمامها سواسية ليس لعربي على عجمي فضل إلا بحسن العمل واصطناع هذا الروح البشري الفاضل . وكان الرسول ، عليه السلام ، يأخذ بيد هذه الأمة العربية فيزيل أحقادها ، ويؤاخي بينها ، ويؤلف من قبائلها المتنافرة شعباً متحداً يخضع لسلطان واحد ، ويدين بملة واحدة ، ثم يتقدم إلى الشعوب في أقطار الأرض يدعوها إلى هذا الدين الإسلامي ، ويربطها بوشائج إنسانية لعل الناس يحيون على هذا الأصل الكريم من تحابٍ ، وتعاون ، ووئام .

لذلك كانت الأوضاع الإسلامية مغايرة للرسوم الجاهلية من وجوه شتى : فالعصبية القبلية صارت شيئاً منكراً أخذت تحل محله رابطة قومية أول الأمر ، ثم عقيدة دينية عامة ، وجدَّ الرسول وخلفاؤه في محاربة الحميّة الجاهلية وما يُلابسها

من شعر ونثر وإن لم يستطيعوا محوها من نفوس العرب فحيّت قوية زمن الأمويين كما قال بعض الشعراء ذلك صريحاً مجاهراً .

فلا تحسَبوا الإسلامَ غيّر بعدَكم رِماحَ مواليكم؛ فذاكَ بكم جهلُ[1]

كذلك أخذت الديانات القديمة تتضاءل أمام الإسلام ولا سيما فى بلاد العرب، من يهودية ، ومسيحية ، ومجوسية، ووثنية ، وكانت مظاهر النشاط المادى والأدبى تؤازر الوضع الجديد وتساير تياره حتى صار الإسلام دين العرب، واجتهد ليكونَ دين البشر .

وأما الجهالة الجاهلية فقد حمل عليها الإسلام ليحل محلها التسامح ، والعفو ، والتمسك بآداب الدين ، فبعد ما كانت (الأيام) مستعرة فى سبيل الرياسة والمادة صارت فى سبيل الإسلام وآدابه ، و بعدما كانت بين العرب انتهت فكانت بين العرب والأمم الأخرى .

صار العرب بالإسلام أمة ودولة لها حكومتها القائمة ، ونظامها المقرر ، بعدما كانوا قبائل وعشائر متنافرة أو إمارات خاضعة لسلطان الفرس والروم، وأصبحت ترى على رأسها حاكما يدير شئونها ويقف بها أمام العالم تشارك فى سياسته ، وتبنى فى حضارته ، وتحمله على الاعتراف بها ثم الخضوع لسلطانها بعد ما كانت بدداً فى أرجاء البادية .

— ٢ —

هذه الدعوة الإسلامية الجديدة من شأنها أن تثير عواطف متناقضة بين دعاة الحق الجديد وأنصار الباطل القديم ، أو بين المحافظين على الرسوم البدوية الجاهلة والمجدِّدين بالأصول الاسلامية الفاضلة ؛ هى عواطف مختلفة تمثل

(١) راجع ترجمة عقيل بن علفة فى الأغانى جـ ١١ ص٨٥ بولاق

هذا الصراع بين حياتين أو طورين من أطوار الحياة العربية فى تلك الحقبة من حِقَب التاريخ ، فريق مع الرسول ، وفريق عليه ؛ وذلك أمر طبعى فى مثل هذه النهضات ، فمن الناس من جمد سلوكهم وتعلق بالماضى الذى درب عليه لايحيد عنه ومنهم من رُزق مواهب حية متجددة تستطيع مسايرة الزمن وتبيُّنَ أنوار الهدى فتمشى قدماً لا تلوى على شىء ، وهكذا كان الشأن أول الدعوة الإسلاميه ، فكانت الكثرة على الرسول والقلة القليلة معه ، ولما كان من الطبعى أن ينذر عشيرته الأقربين قبل سواهم فقد دارت المعركة بينه و بين قُريش أول ما دارت ، بل بينه و بين أسرته وفروعها ولقى فى ذلك بلاء كبيراً صبر عليه كريماً ثابت الجنان قوى العقيدة حتى هاجر من مكة إلى المدينة ، فكان من ذلك معسكران سياسيان أو دينان : قريش بمكة ، والأنصار والمهاجرون بالمدينة ، وأخذت الدعوة الإسلامية صورة عملية من ذلك الحين ، وقامت الأيام أو الغزوات الدينية فى سبيل هذه النهضة المباركة كما هو مقرر فى التاريخ السياسى .

من مستلزمات هذه النهضة قيام نهضة أدبية بجانبها تسايرها ، وتؤرخها ، وتسندها ، وقد حدث ذلك فعلا ، وكان ذا مظاهر شتى :

فالقرآن الكريم الذى نزل على الرسول كان معجزة هذه الدعوة وأصلها الأول ، وكان فى مستوى أدبى لا يضاهى سواء فى موضوعاته ، ومعانيه ، وأساليبه وغايته السامية .

وكانت أحاديث الرسول ، وخطبه ، وتعاليمه سنداً ثانياً لنهضة العرب وهدى مُبيناً لسلوكهم القومى والإنسانى فوق بلاغتها الممتازة ، وكانت نهضة شعرية عامة ، أظهرت الشاعرية القرشية بعدما كانت خامدة وذلك لتناهض شاعرية قوية أصيلة كانت فى المدينة بين الأنصار من الأوس والخزرج ، واليهود[1] .

---

(١) راجع ، للمؤلف ، تاريخ الشعر السياسى ص٩٠ وما وليها . ط ١

وإذا كان ابن سلام يردّ خمود الشاعرية القرشية فى الجاهلية إلى « أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا »[1] فلقد وجدت الثائرة والحرب الآن وأخذت عواطفهم تثور ، والأيام تتوالى ، ومكانتهم الدينية تمس ، وعليهم الآن أن يقفوا بسيوفهم وألسنتهم المكية أمام سيوف الأنصار وألسنتهم المدنية ، فهذا وجه ، وبذلك قامت مدرستا مكة والمدينة .

ووجه آخر نشير إليه ، وهو أن القبائل الأخرى ، غير قريش والأنصار ، أخذ شعراؤها ينضمون إلى قريش ، أو إلى الأنصار ، فأمية بن أبى الصلت الثقفى وكعب بن الأشرف اليهودى وسواه من شعراء اليهود مع قريش ، والأعشى التميمى ، ومعبد الخزاعى ، وسواهما مع الرسول وأنصاره .

ثم قامت النساء تشارك الشعراء فى هذه النهضة الشعرية مع الرسول أو عليه ، وكنّ يحرضن على القتال ، والانتقام ، ويبكين الموتى ويندبنهم ويشنفين من أعدائهن ، كهند بنت عتبة ، وقُتيلة بنت الحارث ، وصفية بنت مسافر فى جانب قريش ، وصفية بنت عبد المطلب ، ونُعم امرأة شماس بن عثمان فى جانب المسلمين .

ووجد اليهود ، بالمدينة خاصة ، أن مكانتهم الدينية والسياسية والاقتصادية ستتعرض لشر كبير إذا نجحت الدعوة المحمدية ، فانضموا إلى قريش بمكة وأخذ شعراؤهم يسيرون فى سبيل ضرار بن الخطاب وعبدالله بن الزِبَعرى وأبى سفيان بن الحارث ومنهم كان كعب بن الأشرف ، وجبَل بن جوّال ، وسمّاك اليهودى ، وقد شرحنا ذلك فى « تاريخ الشعر السياسى » بما يكفى .

وخلاصة ذلك أن هناك نهضة شعرية قوية صاحبت الدعوة الإسلامية وأفادت منها قوة وحياة ، ثم انقسمت القبائل فى سبيلها حزبين كبيرين : مع

---

(١) طبقات الشعراء ص ١٥٢ طبعة مصر .

الرسول أوعليه ، وكان من ذلك ملاحاة ومهاجاة حول هذا التطور فى الحياة العربية مثّلها أول الأمر مدرستا مكة والمدينة ، وكان منها النقائض الإسلامية الأولى .

— ٣ —

كانت النقائض أيام الرسول ، عليه السلام ، امتداداً للنقائض الجاهلية من حيث أصولها الفنية ، وكان بعض شعرائها المسلمين ، كحسان بن ثابت وعبد الله بن رَواحة ، من رجالها الجاهليين ، فنهض بهذا الفن ، عصر البعثة المحمدية ، شعراء مخضرمون أدركوا العصرين : الجاهلى والإسلامى ، سواء فى ذلك شعراء مكة والمدينة من العرب واليهود ، رجالا ونساء ، إلا أن ذلك التغير الذى حدث فى أوضاع الحياة العربية فى تلك الفترة — وقد أشرنا إلى شىء منه قبلا — أصاب المناقضة الشعرية نفسها بتغير من عدة وجوه : -

أول هذه الوجوه هو الموضوع فقد كان فى الجاهلية دائراً حول مرعى أومورد أو رياسة أو طمع أو سفاهة ، ولكنه فى هذه الفترة دار حول دين ينشر ، وأمة تتكون ، ودولة تقوم ، وهداية تُتَّبَع ، صار موضوعاً سامياً ، إنسانياً ، عاماً ، أو — فى أدنى درجاته — قومياً عربياً بعد ما كان قبلياً جاهلياً ، وهذا تحول خطير من غير شك فى تاريخ فن النقائض .

وثانيها هو المعانى ، فمهما يكن من العسير سرعة الابتكار المعنوى ، والتحول من الجاهلية إلى الإسلام فى هذا الجانب ، فلقد غلبت المعانى الدينية على غيرها ، ووجد فى كلام المتناقضين ، من المدرستين ، معانٍ جاهلية قديمة تدور على الأحساب والأنساب والأيام وما إليها ، ومعان إسلامية جديدة تقوم على الكفر والإسلام والهدى والضلال ، وفى الأغانى[1] « كان يهجو رسول الله صلى الله

(١) جـ ٤ ص ١٣٧ دار الكتب .

عليه وسلم ثلاثة رهط من قريش : عبد الله بنُ الزِبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص ، فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار : حسان ابن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبـــد الله بن رَواحة ؛ فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم ، بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبدالله ابن رواحة يعيّرهم بالكفر ، فكان فى ذلك الزمان أشدُّ القول عليهم قولَ حسان وكعب ، وأهونُ القول عليهم قولَ بن رواحة ، فلما أسلموا وفقِهوا الإسلام كان أشدُّ القول عليهم قولَ ابن رَواحة » . وقد ذكرنا فى غير هذا المكان[1] أن هذا الوصف ليس عاماً ولا دقيقاً لأن حسان كان يهجوهم أيضاً بمذهب عبدالله ابن رَواحة .

وثالثها الأساليب ، فقد كانت أساليب النقائض الإسلامية الأولى مضطربة غير مستوية ، سواء ذلك عند الشاعر الواحد ، و بين الشعراء من المدرستين ، كان منها العبارات الجزلة القوية ، ومنها الضعيفة المهلهلة ، ومنها الوسط العادى ، فإذا اعتبرنا الوضع ولحظناه من بين أسباب هـذا الاضطراب ، فإنا نرده كذلك إلى أسباب أخرى ، كضعف الشاعرية القرشية وحداثتها ، وارتجال الشـــعر أمام الحوادث الطارئة ، وهرم بعض الشعراء كحسان بن ثابت ، واقتحامهم جميعاً مجالا جديداً تعوزه مرانة جديدة طويلة ، والتزام بعضهم حدوداً وآداباً إسـلامية تقيد حرية القول وشيطان الشعر ، حدث الأصمعى قال : « طريق الشـعر إذا أدخلته فى باب الخير لان ، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان عَلَا فى الجاهلية والإسلام ، فلما دخل شـعره فى باب الخير من مراثى النبى صلى الله عليه وسـلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم لان شعره ، وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل

---

(١) تاريخ الشعر السياسى للمؤلف ص ٨٠ ط ١ .

امرىء القيس ، وزهير ، والنابغة ، من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والحروب والافتخار ، فإذا أدخلته فى باب الخير لان »[1] ويمكن إيضاح ذلك بالموازنة بين حسان والخطيئة الذى لم يغمره تيار الإسلام كما غمر حسان ، فاحتفظ الخطيئة بمذهبه الأصيل فبقى شعره مستوى الأسلوب جزلا لااختلاف فيه .

ورابعها الغاية ، فإذا بحثت عن غاية النقائض الجاهلية وجدتها ، غالباً ، اشتفاء نفس مغيظة ، وسيرورة قبلية ، وافتخاراً بالشعر ، و بعث الرهبة فى النفوس ونحو ذلك من هذه الأغراض القبلية الضيقة الأفق التى لا تحدث تحولا حتى فى حياة القبيلة ، فأما النقائض الإسلامية فكانت فى سبيل الإسلام ، وقد فسرنا معنى (الإسلام) بأنه دين ، ودولة ، ونهضة عامة ، وسلطان شامل ، و إصلاح يتناول الجنس العربى والبشرية كلها ، فهو تحول فى الحياة الإنسانية وطور خطير من أطوار التاريخ العام ، تزعّمَهُ الرسول ثم خلفاؤه ، وعمل فى سبيله الشعر أو النقائض كما أصّله القرآن والحديث ، وحمته الجيوش .

أما الفنون التى كانت قِوامَ النقائض الإسلامية وعناصرها ، فهى الفنون الجاهلية من مديح ، وهجاء ، وفخر ، ورثاء ، ووصف ، ووعيد ، ونحوها لم تفتح فى الشعر العربى أبواب رئيسية فى ذلك الحين ، ومع ذلك فقد أسبقنا أن هذه الفنون تأثرت فى موضوعاتها ومعانيها وأساليبها وغايتها بمقتضيات النهضة الإسلامية ، ونشير هنا إلى شىء من مظاهر هذا التغير الذى فيه سمات الدعوة ورسولها عليه السلام ، فلقد قال عبد الله بن الزِبَعْرِى يبكى قتلى بدر من أبيات : —

ما ذا على بدرٍ وما ذا حَولَه ... مِن فِتيةٍ بيضِ الوجوه كِرامِ

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٦٢ .

تركوا نُبَيها خلفهم ومُنَبِّهاً ... وابنَيْ ربيعةَ خيرَ خَصمِ فئامِ[1]
وإذا بكى باكٍ فأعولَ شجوَهُ ... فعلى الرئيس الماجد ابن هشام[2]
حيَّا الالهُ أبا الوليد ورهطَهُ ... ربّ الأنام وخَصَّهم بسلام

فأجابه حسان بن ثابت الأنصارى : —

ابْكِ ، بكت عيناك ثم تبادرتْ ... بِدمٍ تُعَلُّ غُروبُها سَجَّامِ
ماذا بكيتَ به الذين تتابعوا ... هلا ذكرت مكارمَ الأقوامِ[3]
وذكرتَ مِنَّا ماجداً ذا هِمَّةٍ ... سمحَ الخلائق صادق الإقدام
أعنى النبيَّ أخا المكارم والنَدى ... وأبرَّ مَن يُولِى على الإقسام[4]
فَلِمِثْلِهِ ولمثـــل ما يدعو له ... كان المدَّحَ ثَمَّ غيرَ كهامِ[5]

فاذا كان ابن الزبعرى يبكى قتلى قريش يوم (بدر) كما يبكى أى شاعر جاهلى قتلى قومه فى بعض (الأيام) فإن حسان بن ثابت وضع بازاء قتلاهم مكانة الرسول ، ونبه على أنهم الباغون ، ثم زاد على ذلك الإشارة إلى الرسول ودعوته وأنه بذلك أحق بالمدح ، وأولى بالفضل .

وهناك مشابهة أخرى بين الفنين الجاهلى والإسلامى ذلك أنهما قويا وشاعا فى ظل الحروب و (الأيام) فقد رأيت فيما مضى[6] أن كثرة النقائض الجاهلية إنما أنشئت حول الأيام و بسببها ، ونلاحظ هنا أنها كثرت كذلك فى سبيل الأيام الإسلامية أو (الغزوات) كبدر ، وأحد ، والخندق ، والفتح ، وذلك طبعى ما دامت الحروب تهيج الشعر ، وتبعث فى نفوس الشعراء مواقف التحدى

---

(١) الفئام الجماعة من الناس . (٢) أبو البخترى العاص بن هشام .
(٣) تتابعوا : ألقوا بأنفسهم فى الهلاك . (٤) يولى : يحلف .
(٥) الكهام الضعيف — سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٦ طبعة الحلبى
(٦) الباب الأول ، فصل ثالث ورابع .

والمناقضة إذ كانت هـــذه حرباً كلامية بجانب الحروب الدموية ، لذلك كانت (سيرة الرسول) ومغازيه أهم مصادر النقائض الإسلامية .

وقد شغلت النقائض ، عصر البعثة ، شعراء مكة والمدينة كما شغلت النقائض شعراء الأوس والخزرج فى أيام الحيين قبيل الإسلام ، وكما شغلت النقائض الأموية جريراً وصاحبيه أهم فترات الدولة الأموية ، فكانت فى جميع هذه الأطوار مشغلة الشعراء ، والرؤساء ، والجماعات العربية وأوجدت بجانبها مدارس نقدية ، وأثرت فى الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية تأثيراً خطيراً .

ولست أدرى ، فلعل رواية ابن إسحاق صحيحة فيما يقوله : إن أول شعر قيل فى الهجرة بيتان قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس[1] أخو بنى محارب بن فهر : —

تداركتُ سعداً عَنوَةً فأخذتُهُ ... وكان شِفاءً لو تداركتُ منذِرا

ولو نِلتهُ طُلَّتْ هناك جِراحُه ... وكان حَرِيًّا أن يُهان ويُهدَرا

قالهما فى سعد بن عُبادة والمنذر بن عمر الأنصاريين لما خلصا من أسر قريش فى أمر العقبة الثانية[2] فأجابه حسان بن ثابت من أبيات : —

لستَ إلى سَعد ولا المرءِ مُنذِرٍ ... إذا ما مطابا القوم أصبحنَ ضُمَّرا

أتفخرُ بالكَتَّانِ لما لَبستَهُ ... وقد تلبسُ الأنباط رَيْطا مُقَصَّرا

فلا تكُ كالوسنانِ يحلُمُ أنّه ... بِقَريةِ كسرى أو بِقَرية قيصَرا

ولاتكُ كالثّكلى وكانت بِمَعزِلٍ ... عن الثُّكل لو كان الفؤادتفكّرا

---

(١) كان ضرار شاعر قريش وفارسها ، ثم ابن الزبعرى بعده . وكان جد ضرار ، وهو مرداس ، رئيس بنى محارب بن فهر ، وأسلم ضرارا عام الفتح .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨١ — ٩٣ ضبعة الحلبى .

فإنّا ومَن يُهدِى القصائد نحونا كمستبضعٍ تمراً إلى أرض خيبرا[١]

ولو صحت لا تثبت يقيناً أن هذه أول مناقضة إسلامية ، و إن كانت تثبت أنها أول مناقضة بعد الهجرة .

— ٤ —

ومع ذلك فلنقف هنا لحظة يسيرة لنشير إلى ما فى القرآن الكريم من صور المناقضة ، فلعلها ذات أثر بعيد فى هذا الفن الاسلامى والأموى جميعاً .

حكى القرآن الكريم قدراً غير يسير من الجدل الذى دار بين الرسول عليه السلام و بين العرب واليهود ، من نصارى ، ومجوسيين ، ووثنيين ، وسواهم ، حول مسائل شتى فى مقدمتها الألوهية ، والرسالة ، والبعث وسلك فى هذا الجدل سبلا منوعة ، وأساليب عدة ، نجد فيها صوراً للمناقضة محكمة بحيث تحتاج إلى دراسة خاصة تستوعبها وتصنفها ، ونورد هنا بعض أمثلتها لتكون دليلا للقارىء والباحث إذا كان النقض القرآنى ليس موضوعنا فى هذه الفصول ، وربما عدنا إلى هذه المسألة فى الباب الثالث .

اعتمد القرآن فى نقض دعاوى خصومه وعقائدهم على طريقة التكذيب القائمة على أدلة واقعية كقوله تعالى : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل ، فلِمَ يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء ، ولله مُلك السموات والأرض وما بينهما ، و إليه المصير »[٢] .

ادعى اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فنقض دعواهم بأن هذه الدعوى

---

(١) نفس المرجع ٩٤ — الأنباط قوم من العجم ، والربط الملاحف البيض المفرد ريطة . خيبر موطن التمر . والشطر لمن يدل بشىء عند أربابه .

(٢) سورة المائدة ، آية ١٨ .

تستدعى عدم تعذيبكم لأنكم لاتذنبون ؛ ولكن الواقع أن الله عذبكم فى الدنيا بالقتل والأسر والمسخ ، وقد اعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياماً معدودات ، إذاً ، يبطل قولكم بأنكم أبناء الله وأحباؤه . ثم أثبت لهم الوصف الطبعى فقال بل أنتم بشر ممن خلقه تعالى تجرى عليكم أحكام القضاء والقدر .

وفى طريقة التكذيب نجده أحياناً يطالب خصومه بالبرهان ، ثم يثبت خلاف ما يدّعون كقوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا مَن كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيّهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، بلى ، مَن أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربّه ولاخوفٌ عليهم ولاهم يحزنون »[١] .

ادعى الفريقان أن الجنة وقف عليهم ، فطالبهم بالبرهان فى دعواهم ، ثم نفاها ، وأثبت أن الجنة حق لكل من يخلص نفسه لله ويحسن فى أعماله .

وكذلك قوله تعالى : « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ، قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لاتعلمون »[٢] .

رماهم بالافتراء والتورط فى الجهالة . وقوله تعالى : « وقولهم إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شُبِّه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه »[٣] . فكذبهم ، وبين سبب خطئهم ، وأنهم يعتمدون على الظن فيما يدعون .

ومرة يسفه أحلامهم ، ويرميهم بالغفلة والبله فيقول : « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ، أولم تأتهم بيّنة ما فى الصحف الأولى »[٤] لما طالبوا الرسول بآية تدل

---

(١) سورة البقرة آية ١١١ ، ١١٢ . (٢) آية ٨٠ (٣) النساء آية ١٥٧
(٤) طه ١٣٣

على صدقه فى ادعاء النبوة ، رد عليهم بآية القرآن المشتمل على زبدة الكتب السماوية السابقة ، فكيف يغفلون عنها أو يغفلونها ؟ !

وقد يتناول بالنقض ماسيدّعى خصومه فى المستقبل ، أو ما قد يدور بخلدهم ، أو يفرض أمراً ليقطع عليهم سبيل المعارضة كقوله تعالى : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ ماأَشْرَكْنا ولا آباؤُنا ولاحَرَّمْنا من شَيْءٍ ، كذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ من قَبْلِهم حتى ذَاقُوا بَأْسَنا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ من عِلْمٍ فتُخْرِجُوهُ لنا ، إن تَتَّبِعُونَ إلاالظَّنَّ وإن أنتُمْ إلا تَخْرُصُون »[1] ادعو أن الله راض عما هم عليه من شرك وإثم ، فقاسهم على مَن سبقهم من أمثالهم فى هذا المذهب حتى وقع بهم العقاب . ثم سألهم الاحتجاج لدعواهم إن استطاعوا ، ورماهم بالكذب واتباع الظن .

رأيت الأمثلة السابقة دالة على مطالبة الخصوم باستعمال عقولهم وأفكارهم فى تبين وجه الحق فيما يدّعون . وقد يعتمد القرآن فى نقضه على الانفعالات والعواطف فيستخدم التهويل والتخويف ، يقول تعالى : « وقالُوا اتخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً ، لَقَدْ جِئْتُم شيئاً ، إدًّا ، تَكادُ السمٰوٰاتُ يَتَفَطَّرْنَ منه وتنشق الأرض وتَخِرُّ الجبال هَدًّا ، أن دعَوا للرَّحْمٰنِ ولداً وما ينْبغى لِلرَّحمٰنِ أن يتخذَ ولَداً ، إن كُلُّ مَن فى السَّمٰوٰاتِ والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عداً ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً »[2] . فلما ادعوا لله ولدا بيَّنَ لهم شناعة هذه الدعوى ومبلغ خطورتها وعدم لياقتها ، وبيَّنَ أن كل الخلق عبيد الله يقدر عليهم ويحشرهم يوم القيامة لاسنَد لأحدهم إلا سلوكه ، وهذا التهويل يخفى الدليل وهو أن الألوهية لايناسبها الأبوة الحسية البشرية التى هى من صفات الكائنات .

---

(١) نفسه آية ٨٠ . (٢) مريم ٨٨ — ٩٥ .

وقد يستخدم التنفير من الصفات البغيضة فيصف بها خصومه لعلهم يتحولون عنها كقوله تعالى :« فَبِمَا نقضِهم ميثاقَهُمْ ، وكُفْرِهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بِغَيرِ حق ، وَقولهم قلُوبُنا غُلف ، بَلْ طبعَ اللهُ عليها بِكُفْرِهم فَلاَ يُؤْمِنُونَ إلا قَلِيلا »[1] ادعوا أن قلوبهم أوعية للعلم أو أن عليها أغلفة فلا تدرك شيئاً ، فرد عليهم الله بأنه قد حجبَها عن المعرفة بسبب كفرهم فقل إيمانهم .

وقد يتردد الحوار بين الرسول وخصومه فيحكيه القرآن ويفصل فيه ، كقوله تعالى : « وإذا قيلَ لهم آمِنُوا كما آمن الناس ، قالوا : أنؤمِنُ كما آمن السفهاء ، أَلاَّ إنَّهُمْ همُ السفهاء ولكن لا يعلمونَ »[2] فلما أمروا بالإيمان كما آمن الناس، تعالوا ورموا المؤمنين بالسفاهة ، ولكن الله قلب عليهم هذه الصفة وأثبتها لهم مع الجهالة .

هذه إشارة خاطفة إلى ماتضمن الكتب الكريم أثناء جدله من أساليب المناقضة ، ونرجو أن يتاح لهذا الجانب من يتناوله فى القرآن والحديث .

— ٥ —

رأينا أن النقائض الإسلامية كانت من الناحية الفنية امتداداً للنقائض الجاهلية وأنها دارت فى الغزوات ، وإن حدث فيها انحراف تناول بعض جوانبها كما أسبقنا ، وقد نهض بها شعراء مكة ومن ناصرهم من جانب ، وشعراءُ المدينة من جانب آخر .

ذلك كان حياةَ الرسول الكريم ولعلها حَمِيت منذ وقعة (بدر) وفترت

---

(١) النساء ١٥٥ . (٢) البقرة ١٣ .

وفترت من عام الوفود فلما تُوفى الرسول وكان العرب أمة واحدة فى ظاهر الأمر ، و إن لم تمَّحِ العصبية لم تطل حروب الردة حتى استقرت الأمور واتجه العرب إلى الفتوح الإسلامية فوقفت بينهم المناقضة وشغلوا بغيرهم من الشعوب ، ذلك إلى ما حارب عمر وعثمان الهجاء وصرفوا الشعراء عنه وآذوهم بسببه ، فقد علمت أن عمر بن الخطاب حبس الحطيئة لما هجا الزِبْرِقان بن بدر ثم أطلقه واشترى منه أعراض المسلمين[١] كما علمت أن عثمان بن عفان عزَّر ضابئاً البُرْجُمىَّ وحبسه فى هجاء بعض الأنصار[٢] وفوق هذا فقد كانت العصبيات مكبوتة ، ولا وجود لخلاف مذهبى أو سياسى تحيا فى سبيله النقائض فسكن هذا الفن إذ لم تساعده الحياة الاجتماعية بسبب هذه السياسة الرشيدة التى تشبث بها عمر بن الخطاب بوجه خاص ، لذلك لا نرى للنقائض نشاطاً منذ عام الوفود حتى وفاة عثمان بن عفان ومصرعه المعروف الذى أدى إلى التنافس بين على ومعاوية حول الخلافة[٣] . فلما كان هذا الخلاف رأينا أثارة لهذا الفن متصلة بالعصبيه الهاشمية والأموية لم تكثر ولم تقو لأن الحوادث أسرعت بالخلافة إلى بيت الأمويين ، ولأن فحول المخضرمين الذين نهضوا بالنقائض الإسلامية الأولى قد ماتوا أو شاخوا ، والجيل الجديد من الشعراء لم يكن قد تقدم بعد إلى مسرح الحياة العامة يتناول شئونها ، فتأخرت النقائض الأمونة إلى حينها من أحيان التاريخ الأدبى .

أما عن الأثارة من النقائض التى حدثت فى أعقاب الفتنة العُثمانية فنذكر منها ما قال الوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيط أخو عثمان لأمه لما قتل عثمان : —

---

(١) الأغانى جـ ٢ ص ١٨٥ دار الكتب . (٢) تاريخ الطبرى جـ ٢ ق ٢ ٢٨٤٩ أوربة . (٣) راجع ، للمؤلف ، تاريخ الشعر السياسى ص ١١٦ وما بعدها ط ١

بَنى هاشِمٍ ، إيهِ فما كان بينا ... وسيف ابن أروى عندكم وحرائبُه
بنى هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ... ولا تُنهبوه ، لاتحـــل مناهبُه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه ... كماغدرت يوماً بكسرى مرازبُه[1]

فأجابه عن هـــذا الشعر ، وفيما رمى به بنى هاشم ونسب إليهم ، الفضلُ ابن العباس بن أبى لهب فقال : —

فلا تسألونا سيفكم إنَّ سيفَكم ... أُضيعَ وألقاه لدى الروع صاحبُه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا ... فهمْ سلبوهُ سيفَه ، وحرائبُه
وكان ولى العهـــد بعد محمد ... علىٌّ وفى كل المواطن صاحبُه
على وليُّ الله أظهـــر دينه ... وأنت مع الأشقين فيما تحاربُه
وأنت امرؤ من أهل صيفور مارحٌ ... فما لك فى الإسلام سهم تطالبُه[2]

ومن المعروف ما دار بين كعب بن جُعيل والنجاشى فى سبيل على ومعاوية لما تنافسا فى الملك الإسلامى ، فقد قال كعب بن جُعيل يرأى معاوية من أبيات : —

أرى الشام تكره مَلك العراق ... وأهلُ العـــراق له كارهونا
وكل لصاحبـــه مُبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا : على إمام لنـــا ... فقلنا : رضينا ابن هند رضينا
وقالوا : ترى أن تدينوا لنـا ... فقلنـا لهم : لانرى أن ندينا
وكل يُسَرُّ بما عنـــده ... يرى غَثَّ ما فى يديه سمينـا[3]

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٤ . (٢) نفس المرجع ص ٢٤٥ .
(٣) الأخبار الطوال ص ١٦٢ — ١٦٣ وشعراء النصرانية بعد الإسلام ، القسم الثانى ص ٢٠٦ .

فأجابه النجاشى برأى على : —

دعَنْ معاوِىَ مالن يكونا ... فقد حقَّق الله ما تحذَرونا
أتا كم على بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا
يرون الطعان خلال العجاج ... وضرب القوانس فى النقع دينا
فإن يكرة القومُ مَلك العراق ... فَقِدْماً رضينا الذى تكرهونا
فقولوا لكعب أخى وائل ... ومن جعل الغث يوماً سمينا
جعلتم علياً وأشياعَه ... نَظِيرَ ابن هند ، أما تستحونا[1]

سنرى ، إذاً ، أن النقائض الإسلامية إنما ازدهرت حياة الرسول وفى ظل الغزوات ، وهذا مانعرضه فيما يلى :

---

(١) نفس المصدر .

obeikandl.com

الفصل الثانى

النقائض والغزوات

— ١ —

قلنا إن النقائض الإسلامية الأولى إنما أنشئت فى ظل الغزوات، وعلينا الآن أن نعرض بعض الشواهد لهـذه النقائض واصلين بينها وبين أسبابها الحربية، معرضين عن النصوص الموضوعة قدر استطاعتنا، متحرِّين الإيجاز الشـديد، محاولين أن نتبين فى هـذه النصوص ما يميزها من حيث الموضوع، والمعانى، والأساليب، والغايات.

ولا شك أن غزوة (بدر الـكبرى)[1] كانت أولى الغزوات الهامة فى تاريخ الجهاد الإسلامى، لأن ماسبقها لم يكن إلا مناوشات يسيرة، ولأن آثارها كانت خطيرة، لِمَـا أعلت من مكانة المسلمين، وأصابت قريشاً بمكة واليهود بالمدينة من ذِلة ونَـكال، ولأنّ الأمر منذ حدوثها صار جِدًّا، وصِراعاً لاهوادة فيـه بين الجاهلية والإسلام، وكان يوم (بدر) هذا للرسول على قريش هلك فيه جماعة من عِلية مكة وأعيانها، فقال عبد الله بن الزِبَعْرَى السهمى يبكى قتلى بدر من المشركين: —

ماذا على (بَدْرٍ) وماذا حولَه ... مِن فِتية بِيض الوُجوه كِرامِ

تركوا نُبَيهاً خلفهم ومنبهًّا ... وابنى رَبيعةَ خيرَ خَصم فِئام[2]

---

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٥٧.

(٢) نبيه ومنبه من بنى سهم، وابنا ربيعة شيبة وعتبة، والفئام الجماعة من الناس.

والحارثَ الفيّاض يبرق وجهُه كالبدرِ جَلّى ليلةَ الإظلامِ[١]
والعـــاصِيَ بنَ مُنَبِّهٍ ذا مِرَّةٍ رُمحا تميما غيرَ ذى أوصامِ[٢]
تنمِى به أعراقه وجـــدودُه ومآثرُ الأخوال والأعمـــامِ
وإذا بكى باكٍ فأعولَ شـجوَه فعلى الرئيس الماجد ابنِ هشامِ[٣]
حيَّا الإله أبا الوليـــد ورهطه ربّ الأنام، وخصّهم بسلامِ[٤]

هذا البكاء يقوم على صفات جاهلية اجتماعية وبخاصة فى قريش بمكة، من كرم، وسناء، وقوة، وحسب، وهو أسف شديد على هؤلاء العلية الذين ذهبت بهم سيوف المسلمين وعاد أرهاطهم إلى مكة من دونهم، فأجابه حسان بن ثابت الأنصارى الخزرجى فقال: —

ابكِ بكتْ عينـاك ثم تبادرت بِدَم تُعَـلُّ غُرُوبُها سَجّامِ[٥]
ما ذا بكيتَ به الذين تتابعوا هلاّ ذكرتَ مكارمَ الأقوامِ[٦]
وذكرتَ مِنّا ماجِدًا ذا هِمَّةٍ سمحَ الخلائق صادق الإقدامِ
أعنى النبيَّ أخا المكارم والنَدى وأبرّ من يُولى على الإقسـامِ
فلمِثـله ولمثـــلِ ما يدعو له كان المـدّحَ ثَمَّ غيرَ كهَامِ

كان رد حسان قائمًا على نقطتين: استنكار البكاء على قتلى المشركين، ثم التحقّ بالرسول ودعوته الإسلامية الكريمة. وهذه النقطة الثانية هى الصلة بين القديم والحديث من معانى النقائض. وواضح أن المناقضة تدور حول النهضة الإسلامية العامة وفى سبيل غايتها الكريمة، وكان الأسلوب جزلا وإن لم يكن خير الأساليب القديمة.

---

(١) الحارث بن زمعة من بنى أسد. (٢) العاصى بن منبه من بنى سهم.
(٣) أعول: رفع الصوت بكاء. الشجر الحزن. الرئيس هو أبو البخترى العاص بن هشام.
(٤) أبو الوليد هو عتبة بن ربيعة (٥) الغروب مجارى الدمع، سجام: سائل.
(٦) تتابعوا: ألقوا بأنفسهم فى الهلكة.

وهناك شعر كثير قيل فى (بدر)[١] منه الأصيل والموضوع ، مناقضةً وغير مناقضة ، اكتفينا بهذا المثال من المناقضة ونشير إلى حوار كان بين حسان بن ثابت والحارث بن هشام فى فرار الحارث هذا اليوم ، قال حسان قصيدته المشهورة التى استوحى فيها طبعه الجاهلى الأصيل فجاءت قوية ، منها قوله : —

تبلتْ فؤادَك فى المنامِ خَريدةٌ ... تسقى الضجيعَ ببارد بسَّام[٢]
كالمسكِ تخلِطهُ بماءِ سَحابةٍ ... أو عاتقٍ كدمِ الذبيح مُدام[٣]
يا مَن لعاذلةٍ تلومُ سَفاهةً ... ولقد عصيتُ على الهوى لُوَّامى
إن كُنتِ كاذبةً الذى حدَّثتِنى ... فنجوتِ مَنجى الحارث بن هِشام
ترك الأحبَّةَ أن يُقاتِلَ دُونَهم ... ونجا برأس طِمِرّةٍ ولِجام[٤]
وبنو أبيه ورهطُه فى مَعرَكٍ ... نصرَ الإله به ذوي الإسلام

نسيب تقليدى ، وتعيير بالفرار ، وفخر بانتصار الإسلام . فأجابه الحارث بن هشام يعتذر من فراره يوم بدر ، فقال : —

الله أعلمُ ما تركتُ قِتالهم ... حتى حبَوا مُهرى بأشقَرَ مُزبِدِ[٥]
وعرفتُ أنى إن أقاتِلْ واحداً ... أُقتَلْ ، ولا يَنكى عدوى مَشهدى[٦]
فصددتُ عنهم والأحبَّةُ فيهم ... طمعاً لهم بِعقاب يَومٍ مُفسدِ[٧]

اتخذ فى الرد طريقة التوجيه فاعترف بالفرار ولكنه برره بإصابة فرسه ، وانفراده ، وأن قتله لا ينفع عدوه شيئاً ، وأنه ينتظر يوم الانتقام ، هذا مع اختلاف

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٨ وما وليها .
(٢) تبلت : أسقمت ، الخريدة : الجارية الحسنة الناعمة .
(٣) العاتق الخمر القديمة ، والمدام من أسماء الخمر . (٤) الطمرة الفرس الكثيرة الجرى .
(٥) الأشقر الدم ، والمزبد الذى علاه الزبد . (٦) ينكى يؤلم ويوجع .
(٧) الأحبة من قتل أو أسر من رهطه — راجع سيرة بن هشام ج ٣ ص ١٧ — ١٩ .

الروى كما ترى . وكان حسان فى فنه قوياً يستوحى طبعه القوى ، وموقفه المنتصر ، وإيمانه الصحيح .

— ٢ —

ولما أصيب أصحاب بدر من المشركين فزع كعب بن الأشرف اليهودى لقتل أشراف العرب وملوك الناس ، ولخوفه على مكانة قومه بيثرب ، فأتى مكة ونزل على عبد المطلب بن أبى وَداعة السَّهمى ، وجعل يُحرِّض على الرسول وينشد الأشعار ويبكى أصحاب (القَلِيب) من قريش الذين أصيبوا ببدر ، فقال من قصيدة : —

طحنتْ رَحى بدر لمهلَك أهـــله ... ولمثـــل بدر تستَهِلُّ وتَدْمَعُ[1]

قُتِلت سَراةُ الناسِ حولَ حِياضِهم ... لاتبْعَـدُوا إن الملوكَ تُصرَّعُ[2]

كم قد أصيبَ بهِ مِنَ ابيَضَ ماجِدٍ ... ذى بَهْجَةٍ يأوى إليـــه الضَّيَّعُ

طلقِ اليدين إذا الـكواكبُ أخلفت ... حمّالِ أثقالٍ يســـودُ ويربَعُ

نُبِّئتُ أن الحارث بنَ هِشامهم ... فى النـاس يبنى الصالحات ويجمع

ليزورَ (يثربَ) بالجموع وإنمـــا ... يحمى على الحسبِ الـكريمُ الأرْوعُ

قال ابن إسحاق : فأجابه حسان بن ثابت الأنصارى فقل : —

أبَكَى لِـكَعبٍ ثُمَّ عُلَّ بِعَـبرَةٍ ... منه ، وعاش مُجَدَّعاً لايَسمَعُ[3]

ولقد رأيتُ ببطنِ بدر مِنهـمُ ... قتلى تسُحُّ لهـــا العيون وتدمعُ

فابكى فقد أبكيت عبـداً واضعاً ... شِبهَ الـكُلَيبِ إلى الـكُلَيبةِ يتبعُ

ولقد شـــفى الرحمن منا سَيِّداً ... وأهانَ قـــوماً قاتلوه وصُرِّعوا

---

(١) تستهل : تسيل بالدموع .

(٢) سراة الناس : سادتهم .

(٣) مجدع : مقطوع الأنف .

ونجا وأفلتَ منهمُ مَن قلبُـه شَعَفٌ يظل لخوفه يتصـدّعُ[١]

تتضمن أبيات كعب بُكاء على القتلى ، وتحريضاً للأحياء أن ينقذوا المدينة من المهاجرين والأنصار ، فكان النقض سخرية به ، وشماتة بالقتلى ، وهجاء للفارين ، وتحقيرا بالرسول . وهناك مناقضة أخرى بين كعب هذا وبين امرأة بَلَوِيّة تدعى ميمومة بنت عبد الله ينكر صحتها أهل العلم بالشعر[٢] .

— ٣ —

وكانت غزوة (أحد)[٣] انتصاراً لقريش ، واشتفاء لنسائهم ولا سيما هند بنت عتبة ، وفيها مثلت قريش بحمزة عم النبي ، وقال أبو سفيان يذكر صبره في ذلك اليوم ومعانة ابن شعوب إياه على حنظلة بن أبي عامر حتى قتله ابن شعوب، من أبيات : —

ولو شِئتُ نجّتنى كُميتٌ طِمِرّةٌ ولم أحمـل النعماءَ لابن شَعوبِ[٤]
وما زال مُهرى مزجرَ الكلب منهمُ لدنْ غُدوةٍ حـتى دنت لغُروبِ[٥]
وسلّى الذى قد كان فى النفس أننى قتلتُ من النجار كل نجيب[٦]
ومن هاشمٍ قَرماً كريماً ومُصعباً وكان لدى الهيجاء غـير هَيوبِ[٧]
ولو أنّنى لم أشفِ نفسىَ منهـمُ لكانت شَجاً فى القلبِ ذات نُدوبِ[٨]
فآبوا وقد أودى الجلابيبُ منهمُ بهم خَدَبٌ من مُعطَب وكئيب[٩]

---

(١) شعف : محترق ملتهب . (٢) سير ابن هشام حـ ٣ ص ٥٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٦٤ وما وليها . (٤) طمرة : فرسة سريعة الوثوب .
(٥) مزجر الكلب : قريب . دنت لغروب أى الشمس ، (٦) النجار رهط حسان من الخزرج . (٧) القرم الفحل الكريم من الابل . يريد حمزة . والهيجاء الحرب .
(٨) الشجا الحزن ، الندوب آثار الجروح .
(٩) الجلابيب المسلمون . أودى هلك . الخدب الطعن النافذ . المعطب الذى يسيل دمه .

أصابهمُ مَن لم يكن لدمائهم كِفاء ولا فى خُطةٍ بضَريب[١]

فأجابه حسان بن ثابت ، فيما ذكر ابن هشام ، فقال : —

ذكرتَ القُرومَ الصِيدَ من آل هاشمٍ ولستَ لِزُورٍ قُلتَهُ بمُصِيبِ[٢]

أتعجَبُ أن أقصدْتَ حمزة منهُمُ نجيباً ، وقد سمّيتَه بنجيبِ[٣]

ألم يقتلوا عَمراً وعُتبةَ وابنهُ وشيبةَ والحجاجَ وابن حبيب

غداةَ دعا العاصى عليا فراعَه بضربة عَضبٍ بَلّهُ بخَضِيب[٤]

ادعى أبو سفيان أنه كان يستطيع الفرار وعدم احتمال منة ابن شعوب ولكنه ثبت ، وكان قريباً من العدو طول اليوم ، وقد انتقم من بنى هاشم ، ومن الخزرج ، وغيّر المسلمين بهزيمتهم وغلبة الناس لهم . فرد عليه حسان بأن حمزة لم يمت هدراً وإنما قُتل به فى بدر عِلْيَةُ قريش . وقال ابن شَعوب يذكر يده عند أبى سُفيان فيما دفع عنه فقال : —

ولولا دفاعى يا بنَ حَربٍ ومَشْهَدى لأُلفيتَ يوم النعفِ غيرَ مُجيب[٥]

ولولا مَكرّى المهرَ بالنعف قَرقرتْ ضِباعٌ عليه أوْ ضِراء كليب[٦]

وقال الحارث بن هشام يجيب أبا سُفيان لأنه ظن أنه عرّض به فى قوله : « وما زال مُهرى مَزجرَ الكلب منهُمُ » . لفرار الحارث يوم بدر :

جزيتهم يوماً ببدر كمثلِه على سابح ذى مَيعةٍ وشبيب[٧]

---

(١) الضريب الشبيه ، والخطة الخصلة الرفيعة — راجع السيرة ج ٣ ص ٨٠ .

(٢) الصيد : جمع أصيد وهو الملك ومن رفع رأسه كبراً .

(٣) أقصدت : أصبت .

(٤) العضب : السيف القاطع . خضيب : دم .

(٥) النعف : أسفل الجبل .

(٦) قرقرت : أسرعت لأكله . ضراء : ضارية . كليب : كلاب .

(٧) ميعة : خفة . شبيب : شباب .

لدى صحن بدر أو أقمت نوائحاً عليك ، ولم تحفل مُصابَ حبيب
وإنكَ لو عاينتَ ما كان منهمُ لأُبْتَ بِقلبٍ ما بقيتَ نخيب[١]

وقد ذكرنا قبلا ما كان بين هند بنت عتبة وهند بنت أثابة من مناقضة رجزية في هذا اليوم .

وكثرت المناقضة بالشعر فى أعقاب (أحُد)[٢] بدافع الفخر والاشتفاء من جانب قريش ، ثم المناهضة ، وذكر بدر ، والهجاء من جانب المدينة ، وإنما نُشير إلى رءوس النقائض هنا ونترك للقارىء الاستيعاب من المراجع ، من ذلك قصيدة هبيرة بن أبى وهب المخزومى من المشركين يقول فيها :

ما بالُ هَمٍ عميد باتَ يطرقنى بالوُدّ مِن هندَ إذ تعدو عواديها[٣]
باتت تعاتبنى هِنـــد وتعذلنى والحربُ قد شُغِلت عنّى مَواليها
سقنا كِنانةً مِن أطراف ذى يمَنٍ عُرضَ البلاد على ما كان يُزجيها[٤]
قالت كِنانةُ : أنّى تذهبون بنا ؟ قلنا : النُخيل ، فأمّوها ومَن فيها[٥]
نحن الفوارس يوم الجرّ مِن أحُدٍ هابت مَعَدٌّ فقُلنا : نحن نأتيها[٦]
هابُوا ضِراباً وطعناً صادقاً خَذِمًا مما يرون ، وقد ضُمّت قواصيها[٧]
ثُمتَ رُحنا كأنّا عارضٌ بَرِدٌ وقام هامُ بنى النـجار يبكيها[٨]

فأجابه حسان بن ثابت فقال : —

سُقْتُم كِنانةَ جَهـلا مِن سَفاهتِكم إلى الرســـول فجُندُ الله مُخزيها

---

(١) نخيب : فزع .
(٢) راجع سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٦٤ .
(٣) عميد : موجع . عواد : شواغل .
(٤) عرض البلاد سعتها .
(٥) النخيل : عين قرب المدينة .
(٦) الجر : أصل الجيل .
(٧) خـذم يقطع اللحم سريعاً .
(٨) العارض : السحاب ، والبرد : الذى فيه برد ، والهام : جمع هامة وهى الطائر الذى تزعم العرب أنه يخرب من رأس القتيل .

أوردتموها حِياضَ الموتِ ضاحيـة ... فالنارُ مَوعدُها والقتـلُ لاقيها[١]
جمَّعتموها أحابيشاً بِلا حَسَبٍ ... أئمةَ الـكُفر، غرّتكم طَواغيها[٢]
ألا اعـتبرتُمْ بخيـلِ الله إذ قتلتْ ... أهـل القَليب ومَن ألقينَه فيها[٣]
كم من أسـيرٍ فـكـكناهُ بِلا ثمَنٍ ... وجَزّ ناصـيةٍ كنّا مَوَاليها[٤]

كان هُبيرة رائعَ الفخر، قويَّ الأسلوب، معتزاً بنتيجة (أحد)، ثم ذكر كنانة وما شاركتهم فى هذا اليوم، فردّ عليه حسان بأن سفَّه خطتهم فى سَوقِ كنانة إلى مصارعها، وسوء آخرتها، وذلك إلى ضعة أصلها، ثم ذكر مصارع قريش ببدر، وأسراهم، وما وُسموا به من الذل والصَغار.

وقال عبد الله بن الزِبعرى فى يوم أُحد من قصيدة: —

يا غُرابَ البَينِ أسمعتَ فَقُلْ ... إنما تنطقُ شيئاً قد فُعِلْ
إن للخـيرِ وللشرّ مـدًى ... وكلا ذلك وجـهٌ وقَبَـلْ[٥]
أبلِغا حسـانَ عنى آيةً ... فقريضُ الشعرِ يشفِى ذا الغُلَل[٦]
كم ترى بالجَرّ مِن جمجُمـةٍ ... وأكُفٍّ قد أُتِرَّتْ ورِجلِ[٧]
كم قتلنا مِن كريم سَيِّدٍ ... ماجِدِ الجدَّينِ مِقـدام بَطلْ
فَسَلِ المِهراسَ مَن ساكِنُه ... بين أقحافٍ وهام كالحجلْ[٨]
ليت أشياخى ببـدر شهدوا ... جزَعَ الخزرجِ مِن وقع الأسَلْ[٩]

---

(١) ضاحية: بارزة للشمس. (٢) طواغيها: متكبروها.
(٣) القليب: البئر التى ألقى فيها قتلى بدر من المشركين.
(٤) مواليها: أهل النعمة عليها. (٥) القبل: المقابلة. (٦) الغلل: جمع غلة حرارة العطش فى الأصل. (٧) الجر: أصل الجبل. أترت: قطعت، والرجل: الأرجل.
(٨) الأقحاف جمع قحف والهام الرءوس. (٩) الأسل: الرماح.

فأجابه حسان بن ثابت فقال من قصيدة : —

ذهبتْ يابن الزِبعرى وقعـــةٌ ... كان مِنَّا الفضل فيها لو عُـدِلْ
ولقـــد نِلتم ونِلنا مِنكمُ ... وكذاك الحربُ أحيـاناً دُوَل
نضع الأسـياف فى أكنافكم ... حيث نهوى عَلَلا بعدَ نَهـل
إذ تُوَلُّون على أعقـابكم ... هُرَّباً فى الشِعبِ أشباهَ الرِسَل (١)
إذ شـدَدنا شَـدّةً صادقة ... فأجأنا كم إلى سَفح الجبل (٢)
وعـلونا يوم بدر بالتُقى ... طاعةِ الله وتصديق الرُسـل
وتركنا فى قريش عَورةً ... يومَ بَدرٍ وأحاديثَ المَثـل

كانت المناقضة بين بدر وأحد ؛ يقف ابن الزبعرى فى أحد مفتخراً مشتفياً متحدياً يذكر آثار قريش فى المسلمين ، وجعل لِمِهراسَ إزاء القَليب ، وتمنى لو شهد البدريون من صرْعى قريش ما حل بالخزرج فى أحد . فسلك حسان فى مناقضته مسلك الموازنة أول الأمر فذكر بدراً إزاء أحد ، وجعل الحرب سجالا ، ثم وصف آثار المسلمين فى قريش يوم بدر ثانياً ، وزاد فذكر اعتزاز المسلمين بالدين وطاعة الله ورسوله .

وقال عمرو بن العاص فى يوم أحد قبل أن يسلم : —

خرجنـــا مِن الفَيفا عليهم كأننا ... مع الصبح من رَضوى الحَبيكُ المنطّقُ (٣)
تمنت بنو النجار جهلا لقاءَنا ... لدى جَنْبِ سَلْعٍ ، والأمانىّ تَصدُقُ (٤)
فما راعهم بالشَر إلا فُجاءة ... كراديسُ خيل فى الأزقّة تَمرُقُ (٥)

---

(١) الرسل : الإبل المرسلة متتابعة . (٢) فأجأناكم : أجأناكم .
(٣) الفيفا القفر ، رضوى جبل ، الحبيك الذى فيه طرائق ، المنطق ، المحزم .
(٤) سلع : اسم جبل . (٥) كراديس : جماعات تمرق : تخرج .

أرادوا لكيما يستبيحوا قِبابَنا ... ودون القِباب اليومَ ضربٌ مُحرَّقُ
وكانت قِباباً أُومنَت قبل ما ترى ... إذا رامها قوم أُبيحوا وأُحنِقُوا
كأن رءوسَ الخزرجيين غدوة ... وأيمانَهم بالمشرفيّة بَرْوَقُ[1]

فأجابه كعب بن مالك ، فيما ذكر ابن هِشام ، فقال : —

ألا أبلِغا فِهراً على نأى دارها ... وعندهم مِن عِلمنا اليومَ مَصدَقُ[2]
بأنّا غداةَ السفح مِن بطن يَثرِبٍ ... صبرنا ، ورايَاتُ المنيّة تخفقُ
صبرنا لهم والصبر منا سَجيَّة ... إذا طارت الأبرامُ نسمو ونرتُقُ[3]
على عادة تلكم جرَينا بصبرنا ... وقِدماً لدى الغايات نجرى فنسبقُ
لنا حَوْمة لا تستطاع ، يقودها ... نَبيٌّ أتى بالحق عَفٌّ مُصَدَّقُ
ألا هل أتى أفناءَ فِهرِ بن مالك ... مُقطّعُ أطرافٍ وهامٌ مُفَلَّقُ[4]

كان عمرو بن العاص أقوى فخراً لأنه يعتمد على انتصار قومه وظفرهم فى هذا اليوم فصوَّر خروجهم الرائع ، وسفاهة بنى النجار فى تمنى لقائهم ، وجيوش قريش المتراصّة المتتابعة ، وعجز المسلمين دون النصر . وكان نقض كعب بن مالك يصور الصبر فى أُحُدٍ ، ويذكر عادة الأنصار فى السبق ، ويعتز بالرسول وشمائله الفاضلة . فسلك مسلكَ : التوجيه والموازنة .

---

(١) البروق نبات له أصول تشبه البصل .
(٢) فهر : أصل قريش .
(٣) الأبرام : اللئام . ترتق : نصلح ونسد .
(٤) أفناء القبائل ما اختلط منها ، والهام الرءوس — راجع السيرة ج ٣ ص ١٥١ .

— ٤ —

ولما أراد بنو النضير من اليهود الغدر بالرسول سنة أربع هجرية أجلاهم إلى خيبر[١] ومنهم من سار إلى الشام فكان من أشرافهم الذين ساروا معهم إلى خيبر سلاّم بن أبى الحُقَيق ، وكنانة بن الرَبيع بن أبى الحُقَيق ، وحُيَىّ بن أخطب ، فلما نزلوها دان لهم أهلها ، وقد صور الشعر هذا الحادث وما لابسه تصويراً حسناً نشير منه إلى ما يتصل بموضوعنا ، قال رجل من المسلمين ـ قيل هو على بن أبى طالب ـ فى هذا الإجلاء من قصيدة :

عرفتُ ومَن يعتدِلْ يَعرِفِ ... وأيقنتُ حقاً ولم أصدِفِ
عن الكلم المحكمَ اللاء مِن ... لدى الله ذى الرأفة الأرأفِ
رسائلُ تُدْرَسُ فى المؤمنين ... بهنّ اصطفى أحمدَ المصطفى
فيأيها ... ا الموعِدون سَفاهاً ... ولم يأت جَوْرًا ولم يَعنُفِ
ألستُم تخافونَ أدنى العذابِ ... وما آمِنُ الله كالأخوَفِ
وأن تُصرَعوا تحتَ أسيافِه ... كمصرع كعبٍ أبى الأشرَفِ
وأجلى النضـ ... ـيرَ إلى غُرْبَةٍ ... وكانوا بدارٍ ذوى زُخـ ... ـرُفِ
إلى أذرِعاتٍ رُدافَى وهمْ ... على كل ذى دَبَرٍ أعجَفِ[٢]

فأجابه سمّاك اليهودى فقال :

إن تفخروا فهو فخرٌ لكم ... بمقتل كعبٍ أبى الأشرَفِ
غداةَ غدوتم على حتفِهِ ... ولم يأت غـ ... ـدراً ولم يُخلِفِ

---

(١) زاجع السيرة جـ ٣ ص ١٩٩ .
(٢) أذرعات : موضع بالشام ، دبر : جرح . أعجف : جمل هزيل .

فعـلّ الليالى وصرفَ الدهور يُديلُ من العادل المنصف[١]
بِقتل النضـــير وأحلافها وعقر النخيل ولم تُقطَف
فإن لا أمُتْ تأتِكم بالقنـا وكل حسامٍ معاً مُرْهَف
بِكفٍّ كمِيٍّ بِهِ يحتمى متى يلقَ قـــرناً له يُتلِف
مع القوم صـــخر وأشياعه إذا غاور القومَ لم يَضْعُف[٢]
كليثٍ بترجٍ حَمَى غِيلَهُ أخِي غابةٍ هاصرٍ أجوَف[٣]

تضمنت الكلمة الأولى اعتزازاً بالإسلام والرسول ؛ ووعيداً لليهود وتهديداً وإشارة إلى مصرع كعب بن الأشرف كما سبق ، وإلى إجلاء بنى النضير إلى خيبر والشام . وكان النقض متضمناً غدر المسلمين بكعب ، وانتظار هزيمة المسلمين بما نكلوا ببنى النضير ، وتهديدهم بالثأر ومعهم قريش مكة . فالمعانى متقابلة متوازنة ، تتركز من الجانبين حول الغدر والعدوان والتربص ، وفيها روح الدين .

وهناك مناقضة أخرى حول هذا اليوم بين كعب بن مالك الأنصارى وسماك اليهودى تصور بوضوح موقف الفريقين الدينى والسياسى ، وتشرب روح الإسلام واليهودية ، وما كان بينهما من جدل صوره القرآن الكريم[٤] .

والشىء الطريف أن تقوم معركة شعرية من نوع المناقضة بين شعراء العرب حول بنى النضـــير من اليهود ، وهى معركة تدل على مكانة كانت لليهود بين القبائل العربية من عدنان واليمن ، وعلى المستوى المدنى والاقتصادى الذى ظفر به بنو النضير إذ ذاك من ثراء ، ونعومة عيش ، وجمال خلق . هذا من وجه ، ومن

---

(١) يريد الرسول عليه السلام .
(٢) صخر هو أبو سفيان بن حرب .
(٣) ترج : جبل بالحجاز ، والغيل أجمة الأسد ؛ هاصر : يكسر فريسته . أجوف : عظيم الجوف .
(٤) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٠٩ و ٢١٠ .

ناحية أخرى تدل على تشبث المسلمين بدينهم ، واعتزازهم برسولهم ، ومن الطريف أيضاً أن يقف شاعر من بنى سليم بن قيس عيلان مع اليهود ، وأن يكون الأنصار على اليهود . وهذه المناقضة رواها ابن هشام فى السيرة[١] . قال عباس بن مرداس السُلَمى يمتدح رجال بنى النضير :

ولو أنّ أهلَ الدار لم يتصدعوا ... رأيتَ خِلالَ الدار مَلْهَى وملعَبَا
فإنك عَمرى هل أُريكَ ظعائناً ... سَلكن على رُكنِ الشطاةِ فتيأبَا[٢]
عَليهِنَّ عِينٌ من ظِباء تَبالَةٍ ... أوانِسُ يُصبينَ الحليمَ المجرَّبا[٣]
إذا جاء باغى الخير قُلن فُجاءةً ... له بوجوه كالدنانير : مَرحَبا
وأهلا ، فلا ممنوعَ خير طلبتَه ... ولا أنت تخشى عندنا أن تؤنّبا
فلاتحسبنّى كنتُ مولى ابنِ مِشكمٍ ... سَلامٍ ولا مولى حُيَىِّ بن أخطبا[٤]

يقوم المدح على جمال القوم ، وثرائهم ، وترفهم ، وكرمهم ، وينطوى على أسف شديد ، وحسرة لاذعة ، إذ ذهب بهاء الحياة بذهاب بنى النضير . فأجابه خوّات بن جُبَير ، أخو بنى عمرو بن عوف ، فقال :

تُبكّى على قتلى يهودَ وقد تَرى ... من الشجوِ لو تبكى أحبَّ وأقربَا
فهلاّ على مقتلى ببطنِ أُرَيْنِقٍ ... بكيتَ ولم تُعول من الشجو مُسهبا[٥]
إذا السلمُ دارت فى صديق رَددتَها ... وفى الدين صَدّاداً وفى الحرب ثَعلبا
عمدتَ إلى قَدر لقومِكَ تبتغى ... لهم شَبَهاً كيما تعزّ وتغلبا
فإنك لما أن كلِفتَ تمدُّحاً ... لِمن كان عيباً مدحُه وتكذُّبا

---

(١) ج ٣ ص ٢١١ وما وليها طبعة الحلبى .
(٢) الشطاة وتيأب موضعان . (٣) تبالة مكان ، يصبين : يذهلن العقل .
(٤) رجلان من أعيان اليهود . (٥) أريق موضع ، المسهب المتغير الوجه .

رحلتَ بأمرٍ كنت أهلا لمثلهِ ... ولم تُلفِ فيهم قائلا لك : مَرحبا
فهلاّ إلى قومٍ مُلوكٍ مَدحتَهم ... تبنّوا مِن العزّ المؤثّل مَنصِبا[1]
إلى معشرٍ صاروا ملوكاً وكُرّموا ... ولم يُلفَ فيهم طالبُ العُرف مُجدبا
أولئك أحرى مِن يهودَ بِمدحةٍ ... تراهم وفيهم عِزة المجد ثُرتُبا[2]

و يقوم النقض على إنكار بكاء اليهود دون الأقارب ، وعلى سوء خلق ابن مرداس ، وعلى تعييره بمدح بنى النضير ، وتكذيبه فيما ادعى لهم من كرم ، ودعوته إلى مدح من هم أهل للثناء من الأمجاد المفضّلين .

فأجابه عباس بن مرداس السلمى — ولما يكن قد أسلم — فقال :

هجوتَ صريحَ الكاهِنَين وفيكمُ ... لهم نِعَمٌ كانتْ مِن الدهر ثُرتُبا[3]
أولئك أحرى لو بكيتَ عليهمُ ... وقومُك ، لو أدّوا من الحق واجبا
من الشكر ، إن الشكر خيرٌ مَغَبّةً ... وأوفقُ فِعلا للذى كانَ أصوبا
فكنتَ كمن أمسى يُقطّعُ رأسه ... ليَبلغَ عِزاً كان فيهِ مُركّبا
فَبَكّ بنى هارون واذكر فعالهم ... وقتلَهم للجوع إذ كنتَ مُجدِبا[4]
أخوّات أذرِ الدمعَ بالدمعِ وابكهمْ ... وأعرض عن المكروه منهم ونكبا
فإنك لو لاقيتَهم فى دِيارهم ... لَألفيتَ عما قد تقول مُنكّبا
سِراعٌ إلى العليا ، كِرام لدى الوغى ... يُقال لِباغى الخير : أهلا ومرحبا

كانت الإجابة إنكار عباس أن يهجو خوات اليهود ، ويجحد أياديهم ، و إثبات استحقاقهم البكاء عليهم من الأنصار فذلك هو الحق ، و يتحداه بأنه

---

(١) المؤثل القديم ، تبنوا اتخذوه كالابن .
(٢) الكاهنان قبيلان من يهود المدينة .
(٣) ثرتبا : ثابت .
(٤) يزعم الكاهنان أنهما من نسل هارون عليه السلام .

لو زارهم فى ديارهم لغير رأيه ، وأنهم أنجاد كرام . ففيها تكذيب ، وهجاء ، وفخر ورد عام للمعانى .

ولكن كعب بن مالك الخزرجى — أبو عبد الله بن رواحة — يرد على عباس بن مرداس فيقول :

لعمرى لقد حكّت رَحى الحربِ بعدما ... أطارت لُؤيًّا قبلُ شرقاً ومغربا[1]
بَقيَّةَ آلِ الكاهِنَينِ و عـزَّها ... فعاد ذليـــــلا بعد ما كان أغلبا
فطاحَ سلامٌ وابنُ سعْيةَ بعدَه ... وقيدَ ذليـــــلا للمنايا ابنُ أخطبا
وأجلبَ يبغى العزَّ والذلُّ يبتغى ... خِلافَ يديهِ ما جنى حين أجلبا
كتاركِ سهل الأرضِ ، والحزنُ همُّه ... وقد كان ذا فى الناس أكدى وأصعبا[2]
وشأسٌ وعزّال ، وقد صليَا بِها ... وما غُيِّبا عن ذاكَ فيمن تغيَّبـــــا
وعوفُ بنُ سَلمى وابنُ عوفٍ كلاهما ... وكعبٌ رئيس القوم حانَ وخيَّبا
فَبُعداً وسُحقاً للنضـــــير ومثلها ... إن أعقبَ فتحٌ أو إن اللهُ أعقبا[3]

فالحرب ذهبت بقريش ، وأذلت النضير ، وأهلكت رجالهم ، وهم قوم مشئومون مغلوبون .

والواقع أن الجدل بين الإسلام واليهودية كان قوياً عريضاً مثّله القرآن الكريم ، والشعر العربى ، ودل هو من وجه على ما لقيت الدعوة الإسلامية من عنت اليهود ، واعتزازهم بأحسابهم ، وثقافتهم ، وحضارتهم ، ومنزلتهم الاجتماعية حتى غلبها الإسلام وأدال منها لنفسه آخر الأمر .

---

(١) لؤى من فروع قريش .
(٢) أكدى : لم ينجح فى مسعاته .
(٣) أعقب : جاء بالنصر عليهم .

— ٥ —

فإذا وصلنا إلى (بدر الآخرة)[١] وقد رجع أبوسفيان فلم ينتقدم للقاء المسلمين.

قال حسان بن ثابت فى ذلك من أبيات :

دَعُوا فلَجاتِ الشامِ قد حالَ دُونها ... جِلادٌ كأفواهِ المخاضِ الأوارِكِ[٢]

بأيدى رجال هاجروا نحو ربِّهم ... وأنصارِه حقاً وأيدى الملائكِ

إذا سَلكتْ للغَور من بطن عالج ... فقولا لها : ليس الطريقُ هنالكِ[٣]

أقمنا على الرسِّ النزوع ثمانياً ... بأرعنَ جرّارٍ عريض المبارك[٤]

بكلِّ كُميت جَوزُهُ نصفُ خَلْقِهِ ... وقبٍّ طوالٍ مُشرِفات الحوارك[٥]

فأبلغ أبا سُفيانَ عنى رسالة ... فإنك من غرِّ الرجال الصعالك[٦]

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقال من أبيات :

أحسانُ يابنَ آكلةِ الفَغا ... وجدك نغتال الخروقَ كذلك[٧]

أقمتَ على الرسّ النزوع تريدنا ... وتتركنا فى النخل عند المدارك[٨]

على الزرع تمشى خَيلنا وركابُنا ... فما وطئتْ ألصقته بالدكادك[٩]

أقمنا ثلاثاً بين سلع وفارع ... بجرد الجياد والمطىّ الرواتك[١٠]

حسبتُم جلاد القوم عند قبابهم ... كأخذكم بالعين أرطالَ آنك[١١]

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٠ .

(٢) الفلجات المياه الجارية ، المخاض الإبل الحوامل ، الأوارك التى ترعى الأراك .

(٣) الغور المنخفض من الأرض . عالج مكان فيه رمل كثير .

(٤) الرس البئر : النزوع القريبة الماء ، الأرعن الجيش الكثير .

(٥) جوزه وسطه ، قب ضوامر الخيل ، الحوارك أعالى الكتفين .

(٦) الصعاليك الفقراء . (٧) الفغا التمر .

(٨) المدارك الأماكن القريبة . (٩) الدكادك الرمال اللينة .

(١٠) سلع وفارع جبلان . الرواتك المسرعة . (١١) الآنك القصدير .

obeikandl.com

فلا تبعثِ الخيلَ الجيادَ وقل لها على نحو قول المعصم المتماسك[1]
سعدتم بها وغيركم كان أهلها فوارسُ من أبناء فِهر بن مالك[2]
فانك لا فى هجرةٍ إن ذكرتَها ولا حُرُماتِ الدين أنتَ بناسك[3]

تحدى حسان أبا سفيان بن حرب وقريشاً بقدومهم لموعد بدر ، وأثبت عجزهم وأثبت إقامة الرسول مع المسلمين ثمانية لعل قريشاً تفد فلم تفعل ، ووصف جيش المسلمين وصفاً حماسياً ، وعرج على زعيم قريش فرماه بالصعلكة ، وكان أسلوب حسان رائعاً ، قوياً حقاً ، ونخاصة بيته الثالث ، فلما تصدى أبوسفيان بن الحارث لنقض أبياته ، تناول حسان وقومه فتنى عنهم المجدوأثبته لقريش ولعله يريدالمهاجرين وذلك نظير هجائه أباسفيان وقريشاً ، ثم وضع حماسة بإزاء حماسته حين وصف جيش قريش ، وإقامته بين سلع وفارع ، وسخر من الأنصار ورماهم بأنهم قيون أهل نخيل وتمر ، فكان النقض قوياً أيضاً .

وكانت غزوة (الخندق) متصلة بغزوة بنى قُريظة ، وذلك أن نفراً من اليهود منهم سلاَّم بن أبى الحُقيق النضرى ، وحُيَىّ بن أخطب النضرى ، وكنانة بن أبى الحُقيق النضرى ، وهَوْذة بن قيس الوائلى ، وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل — وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم — خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله وقالوا : إناسنكون معكم عليه ، وأن دينكم خير من دينه ، فنشطت قريش لحرب محمد وأخذ هؤلاء النفر من يهود يدعون غطفان إلى حرب الرسول ، حتى أتوا المدينة بعد حفر الخندق ، ثم أتى حُيي بن أخطب النضرى كعب بن أسد القُرظى

---

(١) المعصم المستمسك بالشىء .
(٢) فهر بن مالك : قريش .
(٣) الناسك المتبع معالم دينه .

فحمله على نقض عهد قريظة مع الرسول ، فلما فرغ المسلمون من أمر الخندق غزو بنى قريظة فى خبر طويل[١] ، وقد قال ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهرى من المشركين فى يوم الخندق من قصيدة : —

وَمُشفِقَةٍ تظنُّ بنا الظنونا ... وقد قُدنا عَرَنْدَسةً طَحُونا[٢]
كأن زُهاءها أُحُدٌ إذا ما ... بدَت أركانُه للناظرينا[٣]
ترى الأبدانَ فيها مُسبغَات ... على الأبطالِ واليلَبَ الحصينا[٤]
وجُرداً كالقِداحِ مُسوَّمات ... نؤم بها الغُواةَ الخاطئينا
كأنهمُ إذا صالوا وصُلنا ... بباب الخندقين مُصافِحونا
فأحجرْناهمُ شهراً كَرينا ... وكنا فوقَهم كالقاهرينا[٥]
نراوحهم ونغدو كلَّ يوم ... عليهمْ فى السلاح مُدجَّجينا
فلولا خَندقٌ كانوا لديه ... لدمّرنا عليهم أجمعينا
فإن نرحلْ فإنا قد تركنا ... لدى أبياتكمْ سعداً رَهينا[٦]
وسوف نزوركم عما قريبٍ ... كما زُرناكمُ متوازِرينا

فأجابه كعب بن مالك من قصيدة :

وسائلة تُسائل ما لَقينا ... ولو شهدَتْ رأتنا صابرينا
صبرنا لا نرى لله عِدْلا ... على ما نابنا مُتوكلينا
وكان لنا النبيُّ وزيرَ صدق ... به نعلو البريّة أجمعينا
نقاتلُ معشراً ظلموا وعقُّوا ... وكانوا بالعداوة مُرصِدينا

---

(١) راجع السيرة ج ٣ ص ٢٢٤ — ٢٣٦ . (٢) عرندسة : شديدة .
(٣) زهاؤها تقدير عددها . (٤) الأبدان الدروع ، مسبغات كاملة . اليلب الدرسة .
(٥) أحجرنا : حصرنا . كرين : كامل (٦) سعد بن معاذ جرح فمات .

تراثا فى فضافِضَ سابغاتٍ كغُدران المَلا مُتسربلينا[١]
بباب الخندقَين كأن أُسْداً شوابِكُهُنَّ يَحمين العَرينا
لننصرَ أحمداً واللهَ حتى نكون عبادَ صدق مُخلصينا
ويَعلمَ أهلُ مكةحين ساروا وأحزابٌ أتوا متحزّبينا
بأن الله ليس له شريكٌ وأن الله مولى المؤمنينا
فإما نقتلوا سعداً سَفاها فإن الله خير القادرينا
سيُدخله جِناناً طيّبات تكون مُقامة للصالحينا
كما قد ردَّكم فَلّاً شريداً بغيظكم خزايا خائبينا[٢]

ولسنا نقف عند هاتين النقيضتين لوضوح أمرهما إلا أنا نلاحظ أن الثانية كأنها نظم آى القرآن فى سورة الأحزاب و بخاصة آخرها .

وفى يوم (الخَندق) نجد نقائض ثلاثاً جزلة لعبد الله بن الزِبَعْرَى من ناحية وحسان بن ثابت وكعب بن مالك من ناحية[٣] ولا يتسع المقام لإيرادها جميعاً ، فلنشر إليها وكفى ، قال ابن الزبعرى فى نقيضته :

حَيِّ الديارَ مَحا معارِفَ رَسمِها طولُ البِلَى وتراوُح الأحقابِ[٤]
فكأنما كتبَ اليهودُ رُسُومَها إلاَّ الكنيفَ ومَعقِد الأطنابِ[٥]
فاترُكْ تَذكرَ ما مضَى مِن عِيشَةٍ ومَحلةٍ خلق المقامِ يبابِ[٦]
واشكر بلاءَ معاشِرٍ واشكرهمُ ساروا بأجمعهم من الأنصابِ[٧]

---

(١) فضافض : دروع واسعة . الملا القسم من الأرض .
(٢) الفل القوم المنهزمون . راجع السيرة جـ٣ ص ٢٠٦ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٦٨ .
(٤) الأحقاب الدهور .
(٥) الكنيف : الحظيرة ، والأطناب : الحبال التى يشد بها الخباء .
(٦) يباب : قفر .
(٧) الأنصاب حجارة يعلم بها الحرم .

حتى إذا وردوا المدينة وارتدَوا ... للموت كل مُجرَّب قضَّابِ[1]
شهراً وعشراً قاهرين محمـداً ... وصحابَه فى الحربِ خير صحاب

فأجابه حسان من قصيدة :

هل رسمُ دارسةِ المقامِ يَبابِ ... مُتكلّمٌ لمُحاورٍ بجـوَابِ
فدع الديارَ وذكرَ كُلّ خريدة ... بيضاء آنسةِ الحديث كعابِ[2]
واشكُ الهمومَ إلى الإله وما ترى ... مِن مَعشر ظلموا الرسولَ غِضابِ
حتى إذا وردوا المدينة وارتجَوا ... قَتْلَ الرسولِ ومَغنَمَ الأسلابِ
وغدَوا علينـا قادرين بأيدهم ... رُدُّوا بغيظهمُ على الأعقابِ
فـكفى الإله المؤمنين قتالهم ... وأثابهم فى الأجر خيرَ ثواب

كأن حسان بن ثابت ينظم آيات الأحزاب فى عجز قصيدته ، وهو جاهلى فى مطلعها وقد أجابه كعب بن مالك أيضاً فقال من قصيدة حماسية عامة بعد ما شفى نفسه فخراً :

ومواعظ مِن ربنا نُهدَى بِها ... بِلسـانِ أزهرَ طيّب الأثوابِ[3]
عُرِضت علينا فاشتهينا ذِكرها ... مِن بعد ما عُرضت على الأحزابِ
حِكما يراهـا المجرمون بزعمهم ... حَرجاً ويفهمها ذوو الألبـابِ
جاءت سخينةُ كى تُغالِبَ ربَّها ... فَليُغلَبَنَّ مُغالِبُ الغلَّابِ[4]

---

(١) مجرب : سيف جرب . قضاب : قاطع .
(٢) الخريده المرأه الناعمة . الكعاب التى نهد ثديها أول ما ينهد .
(٣) أزهر : أبيض .
(٤) سخينة لقب قـريش فى الجاهلية لـما كانت تطعم السخينة (لحم يطبخ بير) . يريد أنها ستغلب على أمرها أمام قدرة الله تعالى .

وهذه الأبيات هى التى كانت متصلة بالموضوع ، وأكثر القصيدة فخر عام وتصوير لقوة قومه ، وجيوشهم ، وعتادهم ، وغنائهم فى الحروب .

وهذه النقائض تصور روحين : جاهلى و إسلامى من حيث المعانى والغايات ولكنها ذات أسلوب جزل قوى يصور معركة حامية قامت على قوة عقيدة المسلمين، وفشل الأحزاب فيما حاولوا .

وقد قال حسان بن ثابت فى بنى قُريظة :

تفاقد معشر نصروا قُريشاً ... وليسَ لهم ببلدتهم نَصيرُ[1]
هم أوتوا الكتابَ فضيعوه ... وهم عُميٌ من التوراة بُورُ[2]
كفرتُم بالقُرآنِ وقد أُتيتُم ... بتصديق الذى قال النذيرُ
فهان على سَراةِ بنى لُؤى ... حَريقٌ بالبويرة مُستطيرُ[3]

رماهم بالتفرقة دعاء عليهم ، و بأنهم لا نصير لهم فى يثرب ، وأنهم ضيعوا كتابهم ، وكفروا بالقرآن مع الاشارة إليه فى الزبور ، وأنهم حقيقون بما حل بهم من عقاب ، فأجابه أبو سفيان بن الحارث ، فقال :

أدام اللهُ ذلكَ من صَنيعٍ ... وحرق فى طرائقها السعيرُ
ستعلمُ أيُّنا منها بِنُزهٍ ... وتعلم أىّ أرضينا تضيرُ[4]
فلو كان النخيلُ بها رِكاباً ... لقالوا : لا مُقامَ لكم فسيروا

يُنكر على حسان اعتزازه بعقاب قريظة ، ويلفته إلى أن ذلك لا يضير قريشاً و إنما يضير الأنصار .

---

(١) تفاقدوا : فقد بعضهم بعضا .
(٢) بور : ضلال أو هلكى .
(٣) سراة : أخيار . البويرة موضع بنى قريظة .
(٤) النزه البعد . تضير : تضر .

وأجابه جبل بن جوّال الثعلبي أيضاً و بكى النضير وقُرَيظة ، فقال : —

ألا يا سعدُ سعدَ بنى مُعاذٍ ... لِما لَقيت قُرَيظَةُ والنَضيرُ
لعمركَ إنّ سعد بَنى مُعاذٍ ... غداةَ تحمَّلوا لَهُو الصَبورُ
وبُدِّلت الموالى مِن حُضَيرٍ ... أُسَيداً ، والدوائر قد تدور
وأقفرت البُوَيرة مِن سَلامٍ ... وسَعيةَ وابنِ أخطبَ فهى بُور
وقد كانوا ببلدتهم ثِقالا ... كما ثَقُلت بِميطانَ الصُخور[1]
فإن يهلِك أبو حكَمٍ سَلامٌ ... فلا رَثُّ السلاحِ ولا دَثور
وكل الكاهِنَينِ وكان فيهم ... مع اللينِ الخَضارمة الصقُور[2]
وجدنا المجدَ قد ثبتوا عليه ... بمجدٍ لا تُغَيِّبه البُدورُ
أقيموا يا سَراةَ الأوسِ فيها ... كأنكمُ مِن المخزاةِ عُورُ
تركتم قِدْرَكم لا شىء فيها ... وقِدْرُ القومِ حامية تفُور

يبكى صرعى قومه ، ويذكر أعيانهم ، ويشيد بمجدهم ، وينعى على الأوس تخاذلهم عن حماية جيرانهم الأولين من يهود ، واستكانتهم للخزرج وقريش .

ولما كان أمر (الحُديبية) وما أعقبها من هدنة بين الرسول وأهل مكة ، كانت حادثة أبى بَصير عُتبة بن أَسيد من المستضعفين ، وذلك أن طلبت قريش رده إليهم فأشار عليه الرسول أن ينطلق إلى قومه فانطلق مع رجل من بنى عامر ابن لؤى ومولى لهم حتى إذا كان بذى الحُلَيفة قتل أبو بصير العامرىَّ ، فقام سُهيل بن عَمرو يطلب بديته ، فسفّهه أبو سفيان ، فقال فى ذلك مَوْهَب بن رياح أبو أُنَيس ، حليف بنى زُهرة ، أو هو أشعرى : —

---

(١) ميطان جبل بالمدينة . (٢) الكاهنان حيان . الخضارمة الأجود الكرماء — راجع السيرة جـ ٣ ص ٢٨١ طبعة الحلبى .

أتانى عن سُهَيل ذَرء قـولٍ ... فأيقظنى ، ومابى مِن رُقادِ[١]
فإن تـكنْ العِتابَ تُريد مِنِّى ... فعاتِبنِى فما بِك مِن بِعادِى
أتُوعدنِى وعبدُ مناف حولى ... بمخزوم ، ألهفاً ، مَن تُعادى
فان تغمِز قناتى لا تجدْنى ... ضعيفَ العُودِ فى الكُرَب الشِدادِ
أُسامى الأكرمين أباً بِقومى ... إذا وطئ الضعيف بهم أُرادى[٢]
همُ منعوا الظاهر غيرَ شكٍّ ... إلى حيث البواطنُ فالعوادى[٣]
بـكل طِمِرَّةٍ وبِكُلِّ نَهْدٍ ... سَواهِمَ قد طوِينَ مِن الطِرادِ[٤]
لهم بالخيفِ قد علمت مَعدّ ... رواقُ المجد رُفِّعَ بالعِماد[٥]

فأجابه عبد الله بن الزِبَعْرى فقال :

وأمسى مَوهَبٌ كَحِمار سَوء ... أجارَ ببلدةٍ فيها يُنادِى
فإن العبدَ مثلَك لا يناوى ... سُهيلا ، ضلّ سعيكَ مَنْ تعادى
فأقصر يابنَ قَينِ السوء عنه ... وعَدٍّ عن المقالة فى البلادِ
ولا تذكر عتابَ أبى يزيد ... فهيهات البحورُ مِن الثِماد[٦]

والأمر أن المناقضة هنا داخلية بين رهطين من قريش بمكه لأن القاتل التجأ إلى المدينة أخيراً بموافقة قريش . فبقى الأمر بين عامر بن لؤى وسائر قريش ، فأما أبو أنيس فأنكر طلب سُهيل ووعيده ، وتهدّده ، وفخر عليه فانبرى له عبد الله الزِبَعرى فهجاه ونزل به عن سهيل .

---

(١) درء طرف . (٢) أرادى أرامى . (٣) الظواهر ما علا من مكة والبواطن ما انخفض منها والعوادى جوانب الأودية . (٤) الطمرة الفرس الوثابة والنهد الغليظ . سواهم : عوابس . طوين : ضمون . (٥) الخيف موضع بمنى . (٦) الثماد الماء القليل راجع سيره ابن هشام حـ ٣ ص ٣٣٩ .

وفى غزوة (خَيبر) خرج مَرحب اليهودى من حصنهم ، قد جمع سلاحه ، يرتجز وهو يقول :

قَد علمتْ خَيبرُ أنى مَرحَبُ شاكى السلاح بَطل مُجرَّبُ
أطعنُ أحياناً وحيناً أضرِبُ إذا الليوث أقبلتْ تحرّبُ[1]
إن حِماىَ لَلْحِمَى لا يُقرَبُ

وهو يقول مَنْ يبارز ؟ فأجابه كعب بن مالك فقال :

قد علمتْ خيبرُ أنى كعبُ مُفرِّجُ الغُمَّى جرىء صُلْبُ
إذا شبّت الحربُ تلتها الحرب معى حُسام كالعقيق عَضْبُ
نطؤكم حتى يذِلَّ الصعبُ نُعطى الجزاء أو يبى النهبُ
بِكفّ ماضٍ ليس فيه عَتبُ

— ٦ —

و بعد بعث الرسول إلى (مُؤتة)[2] أقام بالمدينةشهرين ، فأخذت الأسباب تتجمع لفتح مكة ، وذلك أنه كانت بين بنى بكر بن كنانة وخزاعة بمكة دماء شغلهم عنها ظهور الإسلام ، فلما كان صلح (الحُدَيبيةَ)[3] بين الرسول وقريش دخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة فى عقد الرسول وعهده، ولكن بنى الديل من بنى بكر اغتنموا الهدنة وأغاروا على خُزاعة وهم على الوَتير: ماء لهم بأسفل مكة ، ورفدت قريش بنى بكر بالسلاح وأعانتهم حتى أدخلوا خزاعة مكة فلجأت إلى دار بُدَيل بن ورقاء الخزاعى ودار مولى لهم يقال له رافع

---

(١) تحرب : مغضبة — راجع سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٣٤٧
(٢) سيره ابن هشام ج ٤ ص١٥ (٣) نفسه جـ٣ ص٣٢١ .

فقال الأخْزَر بن لَعط الديلى فيما كان بين كنانة وخُزاعة فى تلك الحروب :

ألاَ هَلْ أتى قُصوى الأحابيش أننا ... رَدَدْنا بنى كعبٍ بأفوقَ ناصلِ (١)
حبَسناهمُ فى دارةِ العبدِ رافعٍ ... وعند بُديلٍ مَحبِساً غير طائلِ
بدارِ الذليلِ الآخذ الضيمَ بعدما ... شفينا النفوسَ منهمُ بالمناصلِ (٢)
حبسناهمُ حتى إذا طال يُومهُم ... نفحْنا لهم من كل شِعبٍ بوابلِ (٣)
نُذبّحهم ذبحَ التيوس كأننا ... أسود تبارى فيهمُ بالقواصلِ (٤)
همُ ظلمونا واعتدَوا فى مسيرهم ... وكانوا لدى الأنصاب أولَ قاتلِ
كأنهمُ بالجزع إذ يَطردونهم ... بقاثور حُفانَ ، النعامُ الجوافلِ

فأجابه بُدَيل بن أمّ أصْرَم الخزاعى ، فقال :

تفاقد قومٌ يفخرون ولم نَدعْ ... لهمْ سَيِّداً يندوهمُ غيرَ نافلِ (٥)
أمِن خِيفةِ القوم الاولى تزدريهمُ ... تُجيزُ الوتيرَ خائفاً غيرَ آئلِ (٦)
وفى كل يوم نحنُ نحبو حِباءنا ... لِعقل ، ولا يُحبَى لنا فى المعاقلِ (٧)
ونحنُ صبحنا بالنلاعةِ دارَكم ... بأسيافنا يسبِقنَ لومَ العواذلِ (٨)
ونحنُ منعنا بين بَيضٍ وعِتْوَدٍ ... إلى خَيفِ رَضْوَى من مَجرِّ القنابلِ (٩)
ويومَ الغَميم قد تكفّتَ ساعِياً ... عُبَيْسٌ فجعناهُ بجَلدٍ حُلاحِلِ (١٠)

---

(١) الأحابيش حلفاء قريش . بأفوق ناصل : خائبين .
(٢) المناصل السيوف . (٣) الشعب المطمئن بين جبلين . الوابل الجبل الكثيرة .
(٤) القواصل الأنياب . (٥) يندوهم يجمعهم فى الندى وهو المجلس .
(٦) آئل : راجع . (٧) نحبو : نعطى ، والعقل الدية .
(٨) النلاعة ماء لبنى كنانه بالحجاز .
(٩) بيض من منازل كنانة وعتود ماء لهم والخيف ما انحدر من الجبل ورضوى جبل بالمدينة
(١٠) الغميم بين مكة والمدينة ، وتكفت حاد عن طريقة . الحلاحل السيد .

obeikandl.com

أأنْ أجمرت فى بيتها أُم بَعضِكمْ بجُموسِها ، تنزونَ أن لم نُقاتِلِ[١]
كذبتم ، وبيتِ اللهِ ، ما إن قلتمُ ولـكنْ تركنا أمرَكم فى بَلابِلِ[٢]

هذه المناقضة جاهلية من حيث أسبابها البعيدة ، وروحها الانتقامية فى الحرم المكى ، ولـكنها اتصلت بحوادث الإسلام ، وأتت فى قصة فتح مكة فأوردناها هنا لذلك ، وكانت معانى الأخزر هزيمة خزاعة ، وحبسهم ، والتنكيل بهم لظلمهم.

وكان نقض بُديل بقتل سادة كنانة ، وسيادة خزاعة ، وظفرهم عليهم فى الحروب ، حتى فزعت كنانة واضطربت شئونها ، فكان موازنة وتكذيبا .

وعلى أثر ذلك فزعت خزاعة إلى الرسول بالمدينة من غدر قريش وكنانة ، فلم يكن إلا فتح مكة[٣] وفيه قال حسان قصيدته الهمزية التى تعد من خير شعره الإسلامى : —

عفَتْ ذاتُ الأصابعِ فالجواء إلى عَذراءَ ، منزلُها خلاء[٤]

وكان عمرو بن سالم الخزاعى قدم على الرسول المدينة وذكر له نقض العهد ودعاه لفتح مكة فى رجز جيد[٥] فلما تم الفتح قال أنَس بنُ زُنيم الدِيلى يعتذر إلى الرسول مما كان قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعى من قصيدة :

أأنت الذى تُهدى مَعَدّ بأمرِه بل اللهُ يهديهم ، وقال لكَ اشهَدِ
وما حملتْ مِن ناقة فوقَ رحلها أبَرَّ وأوفى ذِمّـــة مِن مُحَمَّدِ
تَعلّم رسولَ اللهِ أنك مُدركى وأن وعيداً منكَ كالأخذِ باليدِ
تعلّم بأن الركبَ ركبَ عُوَيمر همُ الكاذبون المخلفو كل مَوعِدِ

---

(١) أجمرت رمت بسرعة . الجموس العذرة، يصف الفزع .
(٢) البلابل اختلاط الهم ووساوسه — سيرة جـ ٤ ص ٣٤ .
(٣) سيرة جـ ٤ ص ٣١ . (٤) نفسه ص ٦٤ . (٥) نفسه جـ ٤ ص ٣٦ .

ونَبّـوا رسولَ اللهِ أنى هجـوتُه ... فلاحملت سوطى إلىّ ، إذا ، يَدِى
سِوى أننى قد قلتُ : ويلُ أمِّ فتيةٍ ... أصيبُوا بِنَحس لا بِطلْقٍ وأسعُدِ

فأجابه بُديل بنُ أم أصرم ، فقال من قصيدة :

بكى أنسٌ رَزْنًا فأعول بالبُكا ... فألاً عَدِيًا إذ تُطـــلُّ وتُبْعَدُ[1]
بكيتَ أبا عَبسٍ لِقُرْبِ دمائها ... فتُعذِرَ إذ لا يوقد الحربَ مُوقِدُ
أصـــابهمُ يوم الخنادِمِ فِتْيَةٌ ... كِرامٌ فَسَلْ ، منهم نفيلٌ ومَعْبَدُ[2]
هُنالك إن تسفَحْ دموعك لا تُلَمْ ... عليهم وإنْ لم تَدمَعِ العينُ فاكمَدوا

فأما أنس فمدح الرسول ، واعتذر إليه بأسلوب النابغة الذبيانى ، ورمى عمرو ابن سالم بالكذب فيما ادعى من نقض العهد وهجاء الرسول ، ورمى خزاعة بعدوانها ت كنانة . فرد عليه بديل فعيره بالهزيمة مع قريش وتناول المسألة من قريب .

وقال رجل من بنى جذَيمة فى يوم الفتح :

جزَى اللهُ عنا مُدْلِجًا حيث أصبحتْ ... جَزاءةَ بُؤسَى حيث سارت وحَلَّتِ
أقاموا على أقضاضِنا يقسِمونها ... وقد نَهلت فينا الرماح وعَلَّتِ[3]
فـــواللهِ لولا دينُ آل محمّدٍ ... لقد هرَبت منهم خُيول فشلَّتْ[4]
وما ضرّهم ألا يُعينوا كتيبـــةً ... كرِجْلِ جَرادٍ أرسلت فاشمعلّتِ[5]
فإما يُنيبـوا أو يثـوبوا لأمرهم ... فلا نحن نجزيهم مما قد أضلّتِ

فأجابه وهب الليثى ، فقال : —

دَعَونا إلى الإسلام والحقِّ عامراً ... فمـــا ذنبُنا فى عامر إذ تولّتِ

---

(١) بنو الأسود بن رزن من كنانة . (٢) يوم الخنادم يوم الخندمة جبل بمكة .
(٣) أقضاضنا . أموالنا . (٤) شلت طردت .
(٥) رجل جراد : جماعة منه . اشمعلت تفرقت .

وما ذنبنا فى عامرٍ ، لا أبا لَهُمْ لِأن سَفهت أحلامُهم ثم ضلّت[١]

— ٧ —

وكان يوم (حُنَين) فى أعقاب فتح مكة[٢] وقد أسلم عباس بن مِرادس ، فقال فى يوم حنين من أبيات : —

إنى والسوابحَ يومَ جَمـــع وما يتلو الرسولُ مِن الكتابِ
لقد أحببْتُ ما لقيتْ ثقيف بجَنبِ الشعبِ أمسِ من العذابِ
همُ رأسُ العدو من أهل نجدٍ فقتلُهم ألذُّ من الشَرابِ
هزمنا الجمعَ جمعَ بَنى قَسِىّ وحكّت بَرْكُها بِبَنى رِئابِ[٣]
وصِرْماً مِن هِـلالٍ غادرتْهم بأوطاسٍ تُعفّرُ بالترابِ[٤]
بذى لَجبٍ رسولُ الله فيهم كتيبَتُهُ تَعرَّضُ للضِرَابِ

فأجابه عطية بن عُفَيْف النَّصْرىّ فقال : —

أفاخِرةٌ رفاعـــةُ فى حُنينٍ وعباس بن راضِعةِ اللِجابِ[٥]
فإنك والفِجارَ كذاتِ مِرْطٍ لِرَبّتها وترفل فى الإهابِ[٦]

ينفى عنه عطية فخر حنين ويكذبه فى ادعائه .

وقال أبو ثواب زيد بن صُحَار أحد بنى سعد بن بكر من قيس عيلان يهجو قريشاً فى أعقاب حُنين : —

ألاَ هَلْ أتاكَ أن غلَبتْ قُرَيشٌ هَوَازنَ ، والخطوبُ لها شُروطُ

---

(١) السيرة : جـ ٤ ص ٧٧ .
(٢) ص ٧٠
(٣) بركها : شدتها .
(٤) الصرم جماعة البيوت .
(٥) اللجاب : العنز .
(٦) الفجار الفاخرة . المرط كساء من خز غير مخطط .

وكُنَّا يا قُريشُ ، إذا غَضِبْنَا ... يجىء مِن الغِضابِ دَمٌ عَبيط(١)
وكُنَّا يا قُريشُ إذا غَضِبْنَا ... كأن أنوفَنا فيها سَعوطُ(٢)
فأصبحنا تُسوِّقُنا قريشٌ ... سِياقَ العِيرِ يحدوها النَبيطُ(٣)
فلا أنا إن سُئلتُ الخَسفَ آبٍ ... ولا أنا أن ألينَ لهم نَشيط(٤)
سَيُنقَلُ لحمُها فى كل فَجٍّ ... وتُكتَبُ فى مسامِعِها القُطوط(٥)

فأجابه عبد الله بن وهب رجل من بنى تميم ، ثم من بنى أسيِّد ، فقال : —

بِشرطِ اللهِ نضربُ مَن لَقِينا ... كأفضلِ مارأيتَ مِن الشروطِ
وكُنَّا يا هوازنُ حين نلقَى ... نَبُلُّ الهامَ مِن عَلَقٍ عَبيطِ(٦)
بجمعِكم وجمع بَنِى قَسِىٍّ ... نَحُكُّ البَرْكَ كالورَقِ الخبيط(٧)
أصبْنا مِن سَرَاتِكم وملنا ... بقتلٍ فى المباينِ والخليطِ(٨)
بِهِ (المُلتاثُ) مُفتَرِشٌ يَديه ... يمُجُّ الموتَ كالبكرِ النَجيطِ(٩)
فإنْ تكُ قيسُ عَيلانٍ غِضاباً ... فلا ينفكّ يُرغِمهُم سَعوطى

هذه حسرة قيس عيلان يصوّرها أبو ثواب ، فقد ذهب الإسلام بنخوتها الجاهلية وحكّم فيها قريشاً فلا تستطيع قيس عيلان الإفلات من هذا السلطان الجديد فينقض عليه عبد الله بن وهب التميمى معانيه ، فيثبت للاسلام سلطانه ، ويقابل المفاخر بمثلها ، ويشمت بقيس وبطونها ، ويوعدها بالإذلال الدائم .

---

(١) عبيط : طرى .
(٢) سعوط : نشوق .
(٣) النبيط جيل كان بسواد العراق .
(٤) الخسف الذل .
(٥) القطوط الصكوك .
(٦) العلق الدم .
(٧) بنو قسى : ثقيف ، الخبيط المتساقط .
(٨) المباين المفارق المنهزم والخليط الثابت فى القتال . راجع السيرة ج ٤ ص ١١٨ .
(٩) الملتاث رجل . البكر الفتى من الآبل . النجيط الذى يردد النفس فى جوفه فيسمع دويه .

— ٨ —

وفى سنة تسع هجرية وردت الوفود على الرسول مسلمة ، نذكر منها وفد تميم الذى فخر بقومه ، فقال الزبرقان بن بدر فى ذلك : —

نحنُ الكِرامُ فلا حَيٌّ يعادلنا ... مِنّا الملوكُ وفينا تُنصَبُ البِيَعُ[1]

وَلم نَسرْ نا مِن الأحياءِ كُلِّهِم ... عند النِهابِ وفضل العِزِّ يُتبَعُ

ونحن: يُطْعِمُ عند القحطِ مُطعمُنا ... مِن الشِواء إذا لم يُؤنَس القَزَعُ[2]

بما ترى الناسَ تأتينا سَراتُهمُ ... مِن كل أرضٍ هُوِيًّا ثم نصطنعُ[3]

فننحَرُ الكومَ عُبْطا فى أرومتِنا ... للنازلين ، إذا ما انزلوا شَبِعُوا[4]

فمن يفاخرُنا فى ذاك نعرفهُ ... فيرجعُ القومُ والأخبارُ تُستَمعُ

إذا أَبَينا ولا يأبى لنا أحَدٌ ... إنا كذلك عند الفخر نَرْتَفِعُ

ادعى لقومه الكرم ، والفضل ، والرياسة ، والغلب ، والسلطان ، فهم يطعمون عند المحل ، ويفضلون على سراة الناس ، وتسرى مآثرهم بين الأحياء ، ولا ترد لهم كلمة .

فأجابه حسان بن ثابت فقال من قصيدة : —

إنّ الذوائبَ مِن فِهْرٍ وإخوتِهم ... قد بيّنوا سُنَّةً للناسِ تُتَّبَعُ[5]

يرضى بها كل مَن كانت سَرِيرَتُه ... تقوى الإله وكلّ الخيرِ يَصطنِع

قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوهمُ ... أو حاولوا النفعَ فى أشياعهم نفعوا

إن سابقوا الناسَ يوماً فاز سبقهمُ ... أو وازنوا أهل مجد بالندى مَتَعوا[6]

---

(١) البيع مواضع العبادات . (٢) القزع السحاب الماطر . أى عند الجدب والقحط

(٣) هوى : سراع .

(٤) الكوم النوق العظيمة السنام . عبط سليمة . أرومة أصل .

(٥) الذوائب السادة . (٦) متعوا : زادوا .

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشِيعُ
أهدى لهم مَدحَتى قلب يُؤازرهُ ... فيما أُحبَّ لسانٌ حائك صَنَع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جدَّ بالناس جِدُّ القولِ أو شمعوا(١)

فرد حسان عليه بما للرسول وقومه من مفاخر الدين ، والشجاعة ، والخير ، وسبق الناس إلى الفضائل ، ووجود الرسول فيهم ، وأنهم خير الأحياء طراً ، فسلك سبيل الموازنة ، وفضل رهط الرسول ، وإن لم يسلك سبيل الهجاء ، فالمناقضة قامت بين الشاعرين على الفخر لاغير .

روى ابن هشام أن الزبرقان بن بدر لما قدم على الرسول وفد بنى تميم قام فقال :

أتيناكَ كيما يعلمَ الناسُ فضلَنا ... إذا احتفلوا عند احتضار المواسم(٢)
بأنّا فروعُ الناسِ فى كل مَوطنٍ ... وأن ليس فى أرض الحجاز كدارِم(٣)
وأنا نَذُود المُعلمِينَ إذا انتخَوا ... ونضربُ رأسَ الأصيَدِ المتفاقِم(٤)
وأنَّ لنا المِرباع فى كل غارةٍ ... نغير ، بنجدٍ أو بأرض الأعاجِم(٥)

فقام حسان بن ثابت فأجابه من قصيدة :

هل المجد إلا السؤدَدُ العَودُ والنَّدَى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وآوينا النبىَّ محمداً ... على أنفِ راض مِن مَعَدٍّ وراغم
بحىٍّ حَريد أصله وثراؤه ... بحابية الجُولان وسط الأعاجِم(٦)
ونحن ضربنا الناسَ حتى تتابعوا ... على دينه ، بالمرهفات الصوارم
بنى دارِمٍ لاتفخروا إن فخركم ... يعود وبالا عند ذكر المكارِم

---

(١) شمعو : هزلوا — راجع السيرة جـ ٤ ص ٢٠٨ . (٢) احتضار : حضور .
(٣) دارم من قبائل تميم .
(٤) المعلمون الذين يميزون أنفسهم فى الحرب بعلامات خاصة . انتخوا تكبروا . الأصيد المتكبر ، والمتفاقم المتعاظم . (٥) المرباع ربع الغنيمة (٦) حريد : منفرد لعزته .

فإن كنتم جئتم لحقن دِمائكم وأموالكم أن تُقسَموا فى الغنائم
فلا تجعلوا لِلّهِ نِدا وأســـلموا ولا تلبَسوا زِيًّا كزِيِّ الأعاجم

يرى الزبرقان فضـــل قومه على الناس ، وقوتهم الغالبة ، ورياستهم فى الحروب الداخلية والخارجية . فرد عليه حسان بعكس ما ادعى وأن قومه نصروا الرسول على العرب ، وحملوا الناس على الإسلام ، وأن لا حقّ لدارم فى فخر ، وعليهم أن يسلموا لينجوا من النكال . فكان صوت حسان قوياً غلاباً .

* * *

ونكتفى بهذا القدر من النقائض الإسلامية بعد ما أشرنا إلى طرقها إجمالا تاركين للدراسة الخاصة تفصيل ما أجملنا ، وتحليل ما أوردنا . وقد رأيت أنها دارت حول الغزوات ، وكانت شيئاً من الشعر الكثير الذى استدعته هـــذه النهضة الإسلامية . وأما خواصها العامة فإنا نذكرها فى الفصل التالى .

الفصل الثالث

فى خواص النقائض الإسلامية الأولى

نجمل فى هـذا الفصل ما لحظناه مفرقاً فى الفصلين السابقين ممـا يشخص لنا الطور الإسلامى الأول من أطوار النقائض الشعرية .

وقد لحظنا فيما مضى أن هذا الفن الشعرى ظهر عليه الإسلام وهو قائم مستقيم المنهج بين الشعراء ولا سيما بين الأوس والخزرج فى (يثرب) فاستغله الشعراء فى سبيل هـــذه النهضة الجديدة التى غيرت من أوضاع الأمة العربية أولا واتجهت اتجاهاً إنسانياً ثانياً ، فصار الإسلام موضوعاً للنقائض مكان العصبيات القبلية فى الجاهلية سابقاً وفى الدولة الأموية لاحقاً ، وإذا قلنا الإسلام فقـد عنينا الدين ، والدولة ، والنظام الاجتماعى ، والفتوح الإسلامية آخر الأمر .

وكانت معانى النقائض كما رأيت جاهلة وإسـلامية ، الأولى حين يحتفظ الشعراء من المؤيدين والمعارضين بطبعهم الأصيل والثانية حين يستمدون من الدعوة مادة جديدة ، وذلك طبعى ما دامت الفترة فترة انتقال وتحول .

وكذلك الشأن فى الأساليب فقد أصابها اختلاف أو اضطراب ما بين قوة جاهلية وسهولة أو هلهلة إسلامية خضوعاً للتجديد ، أو السرعة ، أو تغير الموضوع ومفاجأته ، وقد ظهر ذلك عند حسان خاصة فضعف شعره الإسلامى كما بينا ، وقد تلحظ ذلك حين توازن بين شـــعر الزبرقان بن بدر الجاهلى عام الوفود وشعر حسان ، أو بين شعر حسان والحطيئة هذا الذى استمسك بجاهلية الأسلوب .

وتلاحظ بجانب ذلك أن موقف بعض الشعراء تغير ؛ كانوا مع قريش معارضين فلما أسلموا صاروا مع الرسول مؤيدين كعباس بن مرداس وعمرو بن العاص وأبي سفيان وغيرهم ، كذلك كان اليهود على صلة حسنة مع قريش ، فلما ظهر الإسلام عادوا الرسول ، وحملهم سلوكهم المضطرب على مراكب خشنة طرّدوا في سبيلها كل مطرّد ووقف شعراؤهم مع قريش يناقضون الأنصار جيرانهم الأولين ، على أن شعراء الأوس والخزرج قد قضى الإسلام أو أسكن ما بينهم من خلاف ومناقضة واتجه شعراؤهم ولا سيما الخزرج إلى مكة يدفعونها عن المدينة ، وهكذا كانت النقائض الإسلامية جادة أول الأمر في سبيل تكوين الأمة العربية ، وتصفيتها ، لتقيم منها شعباً متحداً ، ودولة منتظمة ، وشغلت بذلك حياة الرسول منذ الهجرة إلى وفاته و إسلامه الأمرَ إلى خليفته الصديق أبي بكر .

والنقائض الإسلامية الأولى تمتاز بأنها كانت قصيرة العمر أو ضرورة وقتية استدعتها المهاجاة بين مكة والمدينة في ظل الإسلام ، فلما تصالحت مكة والمدينة ودخلت العرب الدين أمة متحدة لم يبق هناك مجال لهذه المناقضة فسكنت ، وأخذ الخلفاء يحاربون دواعيها الجاهلية ، و يشغلون العرب بالفتوح الخارجية ، وينكرون إنشادها دفناً للأحقاد القديمة وحفظاً للوئام بين المسلمين ، فأنكروا الفخر والهجاء وعزّروا فيه الشعراء وحبسوهم كما أسلفنا ، فلم تظهر المناقضة إلا حين استدعاها الخلاف السياسي بين علي ومعاوية .

على أن هذه النقائض لم تشتمل على فحش ، وجرح للأعراض ، وانتهاك للحرمات كالذي نراه زمن الأمويين فبقيت في هذا الجانب مسايرة لحالها الجاهلية و إن لم تخل من عصبيات قبلية حادة .

كذلك لم نجد هذه النقائض الاجتماعية إلا نادراً كالذي كان بين الحطيئة

وضيفه ، وذلك لأن السياسة الإسلامية أنكرت المشاحنة والتباغض وجعلت بأس العرب على غيرهم فاستحال الشعر حماسة فى سبيل الدولة الإسلامية كما شرحنا ذلك فى كتابنا (تاريخ الشعر السياسى) .

على أنك حين تدرس النقائض الإسلامية دراسة نقدية دقيقة تجد فى ألفاظها وروحها ، ووجهاتها ، وصياغتها خواص تميزها من سواها .

وقد أشرنا إلى أهمها أثناء عرض النصوص والتمهيد لها .

أما الميزات الإسلامية الجديدة التى طبعت النقائض طابعاً فنياً ممتازاً فإنها تتجلى فى العهد الأموى ، وعند فحول النقائض الذين بلغوا بها ذروتها فى تاريخ الأدب العربى ، ونرجو أن نلم بذلك أخريات الباب التالى .